International University of Africa

College Of Arts

English Department

At the Centre of the Storm

My years at the CIA

George Tenet

With Bill Harlow

A translation of a text to be submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of Master of Arts (M.A.) in Translation to be awarded by the Deanship of Higher Studies, International University of Africa.

By:

Bahaeldin AbdAlrahim Yassien

Supervised by:

Lecturer. Nagat Muhmoud Siddig

November 2013

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

" لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ
مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ "

سورة الحديد – الآية 23

الإهـــــــــــــــداء

إلي من علمني ورباني علي الفضيلة والقيم الدينية إلي والدي العزيز

إلي والدتي العزيزة أسال الله لها دوام الصحة و العافية وأن يمد الله في عمرها

إلي زوجتى رفيقة دربي وابني العزيز محمد

وأقف احتراما و تقديراً وتمجيداً لكل من علمني حرفاً

الشـــــكـــــــــــر والتـــــقـــــــدير

الشكر من قبل ومن بعد لله رب العالمين الذى وفقني ويسر لي إعداد هذا العمل المتواضع.

يسرنى أن أقدم شكرى وعظيم امتناني إلى الدكتورة نجاة محمود صديق التى تفضلت بالإشراف على هذا البحث، والذى كان لتوجيهاتها وارشاداتها أبلغ الأثر في اخراج هذا البحث إلى حيز الوجود.

وأشكر الأهل وكل من مد يد العون والمساعدة

المستخلص

في دوامة الاتهامات والاتهامات المضادة التي برزت فى أعقاب الحادي عشر من سبتمبر وحرب العراق، بقيت شهادة أحد الشخصيات الأساسية غائبة بصورة بارزة للعيان. وهذا الكتاب، فى قلب العاصفة، يروي عهد جورج تنيت كمدير لوكالة الاستخبارات المركزية بصراحة وأسلوب يشدّ الانتباه، ويلقي نظرة كاشفة على الأعمال الداخلية لأهم منظمة استخبارات في العالم خلال تلك الفترة الملئية بالتحديات في التاريخ الحديث. يسلط تنيت الضوء علي محاولات وكالة الاستخبارات المركزية (السي آى إيه) المضنية لإعداد البلاد لمواجهة تهديدات جديدة ومميتة، ويحلّل الأحداث المتشابكة التي أفضت إلي الحادي عشر من سبتمبر، ويقدم معلومات جديدة عن المداولات والاستراتيجيات التي تُوجت بغزو العراق.

ابتداءً من تعيينه مديراً للاستخبارات المركزية في سنة ١٩٩٧ ، يكشف تنيت عن الأحداث الخطيرة التي أدت إلى الحادي عشر من سبتمبر كما شهدها وعايشها: إعلانه الحرب علي القاعدة؛ وعمليات السي آي إيه السرية داخل أفغانستان؛ وخطة العمليات على الصعيد العالمي لمحاربة الإرهابيين؛ وتحذيراته المسؤولين في البيت الأبيض في صيف ٢٠٠١ بقرب وقوع هجمات على المصالح الأمريكية؛ وخطة الهجوم المضاد المنسق والمدمر على القاعدة التي وضعت بعد ستة أيام فقط على وقوع الهجمات.

تنتقل رواية تنيت المفحمة بعد ذلك إلى الحرب في العراق حيث يقدّم رؤية مثيرة وخلفية عن الفترة التي أدت إلي الغزو، بما في ذلك الرواية الأولى عن تداعيات إدراج "ست عشرة كلمة " في خطاب الرئيس عن حالة الإتحاد في سنة ٢٠٠٣ ، وهي الكلمات التي تزعم أنّ صدام حسين سعي إلى شراء اليورانيوم من إفريقيا؛ والسياق الحقيقي لتعليق تنيت الشهير"الأمر مؤكد" فيما يتعلق ببرنامج صدام حسين لأسلحة الدمار الشامل؛ ودور السي آى إيه الحاسم في ميل الإدارة علي جر

البلاد إلى الحرب. وبذلك يصحح المعلومات المتعلقة بعمليات السي آي إيه ويكشف للقراء أن الحقيقة أكثر تعقيداً مما توحي به الروايات الأخرى المقدمة حتى الآن عن التاريخ الحديث.

يرسم جورج تنيت بين طيات الكتاب صورة ثابتة لرجل عالق بين القوى المتصارعة في عملية صنع القرار في الإدارة، وفيض المعلومات الاستخباراتية المتدفق من كل أنحاء العالم، وضميره. وفي هذا الكتاب ينهل تنيت من معين تجربته الغنية في الاستخبارات ويقدم فيه معلومات مهمة خرجت إلى النور لأول مرة و قدم نبذة واضحة عن رجل وأمة في أوقات الأزمة.

Abstract

In the whirlwind of accusations and recriminations that emerged in the wake of 9\11 and the Iraq war, one man's vital testimony has been conspicuously absent. Candid and gripping, " at the Center of the storm" recounts George Tenet's time at the Central Intelligence Agency, revealing look at the inner workings of the most important intelligence organization in the world during the challenging times in recent history. With unparalleled access to both the highest echelons of government and raw intelligence from the field, Tenet illuminates the CIA's painstaking attempts to prepare the country against new and deadly threats, disentangles the interlocking events that led to 9\11, and offers explosive new information on the deliberations and strategies that culminated in the U.S. invasion of Iraq.
Beginning with his appointment as a director of Central Intelligence in 1997, Tenet unfolds the momentous events that led to 9\11 as he saw and experienced them: his declaration of war on al-Qaida; the CIA's covert operations inside Afghanistan; the worldwide operational plan to fight terrorists; his warnings of imminent attacks against American interests to white House officials in the summer of 2001; and the plan for a coordinated and devastating counterattack against al-Qaida laid down just six days after the attacks.

Tenet's compelling narrative then turns to the war in Iraq as he provides dramatic insight and background on the run-up to the invasion, including a firsthand account of the fallout from the inclusion of "sixteen words" in the president's 2003 state of the union address, which claimed that Saddam Hussein had sought to purchase uranium from Africa; the true context of Tenet's own now-famous "slam dunk" comment regarding Saddam's weapons of mass destruction(WMD)program; and the CIA's critical role in an administration predisposed to take the country to war. In doing so, he sets the record straight about CIA operations and shows readers that the truth is more complex than suggested in other versions of recent history offered thus far

Through it all, Tenet paints an unflinching self portrait of a man caught between the warning forces of the administration's decision-making process, the reams of frightening intelligence pouring in from around the world, and his own conscience. In "at the center of the storm", George Tenet draws on his unmatched experience within the opaque mirrors of intelligence and provides crucial information previously undisclosed to offer a moving, revelatory profile of both a man and a nation in times of crisis.

المحـــــــتـــويات

الموضوع **الصفحة**

إهداء.....أ

شكر وتقدير.....ب

المستخلص بالعربية.....ج

المستخلص بالإنجليزية..... د

المحتويات.....ه

مقدمة ١

الفصل الرابع عشر.....٣

الفصل الخامس عشر.....٢٦

الفصل السادس عشر.....٤٣

المراجع ٦٤

الملاحق.....

المـــقـــدمـــة

الترجمة هى العلم الوحيد الذى يحتمل التكرار فى الموضوع الواحد. فليس من الممكن اعتبار كل نص مترجم نصاً أخيراً، وترجمته لاتدخل حدود الكمال، ولاتستقر على نهاية. تعددت الآراء حول الترجمة عبر القرون وتأرجحت بين اختلاف واتفاق بلغ حد التطابق، غير أن تلك الآراء فى كلتا الحالتين لم تتوصل إلى صياغة نظرية عامة للترجمة قائمة بذاتها ومتجانسة أو قابلة للتمحيص والتفنيد. فقد كانت حصيلة للتجارب والممارسات الفردية فى الترجمة، ولم تخرج عن إطار المناقشات المعيارية و الذاتية لهذه المسألة. بل كانت تتمحور حول جملة من النصائح لكيفية الترجمة الصحيحة، أو حول الشروط الواجب توفرها فى الترجمة بشكل عام، كما يراها مترجم ضليع فى صنعته أو أديب متعاط او مستهلك لها، أو حول الصفات التى يجب أن يتحلى بها المترجم كيما يكون أهلا لممارسة مهنته.

يُجمع أكثر الدارسين لعملية الترجمة ، و خاصة ممارسوها المتمكنون منها ، بأن هذه العملية تتم على عدة مراحل- أكثر من ثلاث في أغلب الاحيان- فعندما يكون أمام المترجم نص للترجمة فإنه قبل كل شئ :

١- يتحقق من جدية النص و كونه يستحق عناء الترجمة ؛

٢- يقرأ النص قراءة متمعنة، و في هذه المرحلة بالذات تتم في ذهن المترجم بسرعة خاطفة معاينة الصعوبات و اقتراح الحلول التي قد تكون مؤقتة أو نهائية ؛

٣- تحليل النص من خلال قراءة ثانية متأنية ، لاستخراج سماته المتميزة و ملاحظة الأسلوب ، و الفهم الدقيق للمحتوى، و في هذه المرحلة يتمكن المترجم من تحديد نوعية النص و يستعين أحيانا بالقواميس لتفكيك بعض الغموض في المعاني أو لتحديد سياقها ؛

٤- الصياغة التمهيدية، أي البدء بعملية الترجمة الحقيقية. و هنا تكمن الاختلافات في طريقة كل مترجم، و كيفية تعامله مع النص. فأما أن تتم الترجمة جملة بجملة أو فقرة بفقرة أو حتى صفحة بصفحة و ذلك حسب نوعية النص و احساس المترجم به و تفاعله معه ؛

٥- قراءة الترجمة و مقابلتها بالنص الأصلي لتصحيح ما يجب تصحيحه على مستوى التراكيب و المعاني ، و للتأكد من عدم اغفال أي شئ في النص المترجم ، و حذف الزيادات إن وجدت؛

٦- قراءة الترجمة على حده عدة مرات للتأكد من وضوح الأفكار و ترابط النص و تماسك الأسلوب. و في هذه المرحلة، يضع المترجم نفسه مكان القارئ الموجه إليه النص، محاولاً التخلص تماماً من سيطرة النص الأصلي . و يكون من الأفضل ترك الترجمة جانباً لفترة من الزمن ثم اعادة قراءتها بأكبر قدر من الحيادية و الموضوعية .

إلا أنه من المستحسن أن تتم المراجعة الاخيرة للترجمة من طرف محقق ضليع في اللغتين.

الفصل الرابع عشر

إنهم يريدون تغيير التاريخ

صرح أسامة بن لادن نقلاً عن مجلة " تايم " عندما سئل إن كان للقاعدة أسلحة نووية وكميائية ، فى ٢٤ ديسمبر ١٩٩٨ قائلاً : "الحصول على أسلحة للدفاع عن المسلمين واجب ديني . و إذا حصلت على هذه الأسلحة بالفعل، فسأحمد الله على تمكيني من ذلك ".

لم يكن هناك أدنى شك في أن أسامة بن لادن يعني ما يقول ولا يوجد أدنى شكّ في عمل ما يجب عمله لتأدية " واجبه الدينى ". قبل أحداث الحادى عشر من سبتمبر بزمن طويل ، رفعت في شهاداتي العامة ومشوراتي السرية للإدارتين الإنذار بشأن القاعدة . والآن، فى أعقاب الهجمات على مركز التجارة العالمي والبنتاغون ، سألت مساعديّ ، " ماهى الخطوة التالية " ؟

على الرغم من أن لدينا البيانات التي صرح بها بن لادن والتي تثير عندنا مخاوف كبيرة ، فإن الإجماع داخل حكومتنا وخارجها يمكن تلخيصه فى التالي : " المقيمون في الكهوف لا يمكنهم الحصول على أسلحة دمار شامل ". و لكن هذه القضية لم يعد بوسعنا أن نخطئ بشأنها. لذا بعيد الحادى عشر من سبتمبر، وجهت مركز مكافحة الإرهاب في السي آي إيه بإنشاء آلية جديدة تهتم حصراً بأسلحة الدمار الشامل للإرهابيين. و حتى الأشخاص الذين أوكلت إليهم القيام بتلك المهمة كانوا مشككين ، و ببساطة يأملون في أن يثبتوا النفي. بدأنا بمراجعة السجل التاريخي. بحثنا ملفاتنا و أرسلنا فرقاً حول العالم لتقديم الأدلة فى قيادة هذا العمل وطلب المعلومات من أجهزة الاستخبارات الأجنبية التي بحوزتهم. واستجوبنا سجناء القاعدة وتصفحنا المستندات التي وجدناها في المخابئ والحواسيب التي تم الاستيلاء عليها في أفغانستان. وقد أذهلنا ما اكتشفناه .

كانت التهديدات حقيقية. فقد أكدت معلوماتنا الاستخبارية أن معظم القادة الكبار في القاعدة لا يزالون مهتمين بالحصول على أسلحة الدمار الشامل. ربما قدم بن لادن التوجيه الروحي لتطوير

أسلحة الدمار الشامل، إلا أن البرنامج تحت اشراف نائبه أيمن الظواهري شخصياً. كما أننا أكدنا بما لايدع مجالاً للشك أن للقاعدة نية واضحة للحصول على أسلحة كيميائية وبيولوجية وإشعاعية / نووية، وحيازتها ليست لأغراض الردع بل لإيقاع أعداد كبيرة من الضحايا في الولايات المتحدة. وهكذا تبين أن التقدير القائم قبل الحادى عشر من سبتمبر بأن الإرهابيين لا يعملون على تطوير استراتيجية للدمار شامل، تقدير خاطئ. فقد كانوا مصممين على الحصول على تلك الأسلحة واستخدامها.

وبمرور الوقت، تمكنا من ربط القيادات العليا لتنظيم القاعدة بالشبكات الشديدة الاستقلالية لهذه المجموعة الكيميائية والبيولوجية والنووية. وتضم هذه المجموعة مدير عمليات القاعدة، سيف العدل ؛ و رئيس فريق الدعم اللوجستي للقاعدة أبا حفص ؛ وزعيم الجماعة الإسلامية رويدين عصام الدين (الحنبلي) ؛ و المخططين لهجمات الحادي عشر من سبتمبر خالد شيخ محمد و رمزي بن الشيبة ؛ والخبير المصري بالأسلحة الكيميائية والبيولوجية والإشعاعية / النووية أبا خباب المصري ؛ " والمدير التنفيذي للجمرة الخبيثة " كما يصف نفسه ، يزيد صفوت ؛ وخبير المتفجرات – المدير التنفيذي النووي – عبد العزيز المصري . وبينما كنا نُجري بحثاً على المعلومات التي كنا نجمعها ببطء من العديد من المصادر ، كشفنا عن سر مثير للقلق : لم يكن اهتمام المجموعة بأسلحة الدمار الشامل جديداً ، فهم يبحثون عن هذه الأسلحة قبل وقت طويل من بداية بحثنا عنهم . وعلى مبلغ علمنا ، يرجع افتتان القاعدة بالأسلحة الكيميائية إلى الهجوم بغاز السارين في نظام مترو الأنفاق في طوكيو فى مارس ١٩٩٥ م ، والذى شنته مجموعة من المتعصبين الدينيين تطلق على نفسها اسم " أوم شينريكيو ". مات اثنا عشر شخصاً في ذلك الهجوم ، لكن لو عملت أجهزة توزيع الغاز كما كان مخططاً ، لكانت حصيلة الموتى أكبر. أعجب قادة القاعدة بالهجوم ورأوا فيه نموذجاً لتحقيق طموحاتهم. (و عند النظر إلى الأحداث السابقة، فقد

أشار هجوم طوكيو أيضاً إلى اهتمام القاعدة بمترو الأنفاق ونظم السكك الحديدية الذي ظهر لاحقاً في هجمات مدريد في ١١ مارس ٢٠٠٤ م ، وهجمات لندن في ٧ يوليو ٢٠٠٥ م ؛ وفي الهجوم المخطط ضد مترو الأنفاق في مدينة نيويورك في خريف ٢٠٠٣ الذي ألغاه أيمن الظواهري في المراحل الأخيرة من الإعداد – " من أجل شئٍ أفضل ").

في فبراير ٢٠٠١ م ، تمت محاكمة أسامة بن لادن غيابياً ، ومحاكمة آخرين حضورياً لتورطهم في تفجير السفارتين الأميركيتين في تنزانيا وكينيا في سنة ١٩٩٨ م ، في محكمة مقاطعة نيويورك الجنوبية . واتضح في هذه المحاكمة مسعى القاعدة للحصول على أسلحة الدمار الشامل . وصف أحد الشهود الرئيسيين في تلك المحاكمة ، جمال أحمد الفضل ، كيف ساعد في وقت يرجع إلى سنة ١٩٩٣ م ، أسامة بن لادن في محاولة الحصول على يورانيوم في السودان ، ليستخدم في نوع من الأجهزة النووية . و شهد الفضل بأن القاعدة كانت مستعدة لدفع 1.5 مليون دولار للحصول على كمية غير معروفة من اليورانيوم . وقد انتهت شهادته دون التوصل إلى قرار. ولعل ذلك كان التجربة الأولى من العديد من تجارب القاعدة التي تعرضت فيها الجماعة للخداع من قبل انتهازيين ، أو ربما كان العرض حقيقياً ، فنحن لا ندري . الأمر المهم هو أن الجماعة كانت تسعى جاهدة للحصول على مواد نووية في أوائل التسعينيات . كانوا مستعدين للقيام بما ينبغي لهم القيام به، و دفع التكلفة أيّا كانت ، لكي يحصلوا على مواد إنشطارية. كان أسلوب العمل المسؤول الوحيد الذى ينبغي اتخاذه لمواجهة مثل هذه العزيمة الفولاذية، القيام بكل ما هو ضروري لاستبعاد أي احتمال يمكن الإرهابيين من الحصول على المواد الإنشطارية.

لم تكن تصريحات بن لادن في سنة ١٩٩٨ م فيما يتعلق بواجبه الديني الحصول على أسلحة الدمار الشامل نابعة من فراغ أيضاً. ففي تلك السنة نفسها أجرت باكستان أول تجربة لسلاح نووي . و كانت الخبرات والمواد لتحقيق حلم أسامة بن لادن تقع عبر حدود ملاذه الآمن في

أفغانستان. وقد تلقينا معلومات مجزأة من جهاز استخبارات بأن أسامة بن لادن أرسل أيضاً في سنة ١٩٩٨ م مبعوثين للاتصال بشبكة العالم النووي عبد القدير خان. وكان عبد القدير قد بنى على مر العقود شبكة دولية من مورّدي القدرات النووية لبيعها إلى الدول المارقة . ووفقاً للاستخبارات ، كان ردّ عبد القدير لتوسلات أسامة بن لادن العديدة جافاً وحاداً مع أن سبب هذا الرفض لم يتضح . غير أن الواقع الجديد للتعاون المحتمل بين شبكة منظمة تنظيماً جيداً لنشر الأسلحة النووية وجماعة إرهابية ربما يعيد صياغة فهمنا لتهديد أسلحة الدمار الشامل ، وطبيعة ردّنا عليه فى نهاية الأمر.

قبيل الحادي عشر من سبتمبر، عثرت إحدى أجهزة الاستخبارات الصديقة مصادفة على معلومات تفيد بأن منظمة غير حكومية باكستانية تدعى " أمة تعمير نو " أسست لإقامة برامج مساعدة اجتماعية في أفغانستان. غير أن المعلومات أوحت بأن لأمة تعمير غرضاً آخر : كانوا يأملون في تقديم خبراتهم والوصول إلى المؤسسة العلمية لكي يساعدوا القاعدة في إنشاء برامج كيميائية وبيولوجية ونووية.

(يمكن أن تكون المنظمات غير الحكومية أداة ملائمة لتوفير غطاء للمنظمات الإرهابية ، إذ لديها أسباب مشروعة للمتاجرة بالخبرات و المواد والأموال) . كانت قيادة أمة تعمير نو تتكون من علماء نوويين باكستانيين متقاعدين ، وضباط عسكريين ، ومهندسين ، وفنيين . وكان رئيسها ومؤسسها ، سلطان بشير الدين محمود ، المدير السابق للطاقة النووية في لجنة الطاقة الذرية الباكستانية . وكان العديد من زملاء محمود السابقين في المؤسسة النووية الباكستانية ينظرون إليه على أنه رجل مجنون نوعاً ما . ففي سنة ١٩٨٧ م نشر كتاباً بعنوان " يوم القيامة والحياة بعد الموت : الإيمان المطلق بالكون كما يراه القرآن الكريم " . وكانت بمثابة إشادة تثير القلق على نظرته المنحرفة إلى دور العلم في الجهاد . والرسالة الأساسية للكتاب – من زعيم جماعة عرضت قدرات أسلحة الدمار الشامل على القاعدة – أن العالم سينتهي يوماً ما عما قريب بنار محرقة نووية

تؤذن بحدوث يوم القيامة ومن ثم تحقّق نبوءات القرآن . ربما لم يكن زملاء محمود في أمة تعمير نو يشاركونه رؤيته الرهيبة، و لكنهم يتقاسمون معه ميولهم المتطرفة . وافق تشوديري عبد المجيد ، وهو مهندس نووي متقاعد من مؤسسة العلوم والتكنولوجيا النووية الباكستانية في سنة ٢٠٠٠ م على لعب دور رئيسي في مساعدة محمود في خطته تشارك أسلحة الدمار الشامل مع طالبان و أسامة بن لادن. وعلمنا أيضاً أن أمة تعمير تحظى بقدر من التأييد من ضباط عسكريين معارضين للرئيس مشرف ، وعلى الخصوص مدير جهاز الاستخبارات الباكستانية السابق اللواء حميد غول . ويبدو أن اتصالات أمة تعمير نو بطالبان والقاعدة تلقت دعماً من عناصر من الجيش الباكستاني ومؤسسة الاستخبارات ، إذا لم يتم تسهيلها .

طلبت من دائرة العمليات حث جميع مكاتب الاتصال في كل أنحاء العالم لمعرفة أي شئ ممكن عن الأشخاص والمنظمات التي لديها أسلحة دمار شامل وترغب في تبادل خبراتها مع القاعدة والجماعات الإرهابية الأخرى . ولم نحصر استقصاءاتنا بالأصدقاء . فقد تحدثنا إلى الليبيين أيضاً الذين أكّدوا أنهّم رفضوا عروضاً من أمة تعمير نو لبيع خبرتها النووية . عقد بن بوك ، نائب رئيس مركز مكافحة الإرهاب اجتماعاً سرياً مع موسى كوسا ، رئيس جهاز المخابرات الليبي ، لمحاولة استخلاص ما أمكن من معرفة طرابلس بالقاعدة، وفي أثناء الحديث ، سأل بن بوك كوسا إذا كان قد سمع بأمة تعمير نو. ردّ الليبي قائلاً : " نعم ، حاولوا بيعنا سلاحاً نووياً وقد رفضنا عرضهم بالطبع ". أكّدت هذه المعلومات تقريراً منفصلاً من جهاز استخبارات آخر يفيد بأن أمة تعمير نو عرضت على الليبيين تقديم خبرات كيميائية وبيولوجية ونووية . بدا كلام كوسا صحيحاً إذ أننا كنا على علم ، دون أن يعرف ذلك ، بأن ليبيا ليست بحاجة إلى أمة تعمير لأنها أمنت بالفعل خدمات مورّد رفيع لأسلحة الدمار الشامل – شبكة عبد القدير خان للانتشار النووي.

مرّرت السي آي إيه معلوماتنا عن أمة تعمير إلى زملائنا الباكستانيين الذين سرعان ما احتجزوا سبعة من أعضاء مجلس إدارتها للإستجواب . كان التحقيق موسوم بعدم النجاح منذ البداية . فقد أنكر مسؤولو أمة تعمير ارتكاب أي خطأ ولم يتم عزلهم وإستجوابهم بشكل صحيح . بل سمح لهم بالعودة إلى منازلهم كل يوم بعد الإستجواب . عامل المحققون في الاستخبارات الباكستانية مسؤولي أمة تعمير نو بتوقير ، و بالاحترام اللائق الذي يتلاءم مع مكانتهم في المجتمع الباكستاني . كان ينظر إليهم على أنهم علماء ، رجال قدّموا إسهامات كبيرة إلى باكستان . وقد قرأ ضباطنا السؤال البادي على وجوه ضباط الارتباط الباكستانيين : لا يمكن أن يكون هؤلاء الرجال إرهابيين ؟

وكانت تلك مشكلة واجهناها مراراً وتكراراً عندما بدأنا تعقب شبكات أسلحة الدمار الشامل و الأدلة التي ظهرت في الشرق الأوسط و آسيا و أفريقيا و أستراليا ، وفي أمريكا الشمالية والجنوبية . لا ريب في أنّ القاعدة سعت للحصول على الخبرة العلمية على نطاق عالمي . و السؤال الذي يحتاج إلى إجابة عاجلة هو هل نجحت القاعدة بالفعل ؟

قدم إلينا جهاز استخبارات غربي في خريف ٢٠٠١ م معلومة رائعة ساعدت في حل لغز القضية . فقد أخبرهم أحد المصادر أنه في أغسطس ٢٠٠١ م ، قبل أسابيع من هجمات الحادى عشر من سبتمبر، اجتمع مسؤولا أمة تعمير محمود ومجيد بأسامة بن لادن و أيمن الظواهري في أفغانستان . وهناك حول نار المعسكر تباحثوا في سبل مضيّ القاعدة في بناء جهاز نووي . ضغطت السي آي إيه على الباكستانيين لمواجهة محمود ومجيد بالمعلومات الجديدة . ووضعنا المعلومات الليبية على الطاولة. وأطلعناهم أيضاً على معلومات جديدة جمعتها أجهزة استخبارات أخرى ، ولكن دون جدوى . فى ذلك الوقت وقعت ضربة الحادى عشر من سبتمبر، ولم يحدث تباطؤ في هذا المسعى. كانت المخاطر عالية جداً بحيث لا يمكننا تقبل عدم إحراز التقدم الذي يبديه

الباكستانيون . وفي أواخر نوفمبر ٢٠٠١ م ، أطلعت الرئيس ونائب الرئيس و مستشارة الأمن القومي على أحدث المعلومات الاستخبارية ، ومخاوفنا ، واحتمال عدم تمكننا من حل هذه القضية بشكل مرض بدون تدخل الرئيس. و أحضرت معي رئيس قسم أسلحة الدمار الشامل ، رولف موات لارسن ، وكيفن ك . أكبر محلل لدينا في الإرهاب بأسلحة الدمار الشامل . وخلال المحادثة التي أعقبت ذلك التنوير ، سأل نائب الرئيس إذا كنا نعتقد أن للقاعدة سلاحاً نووياً . رد كيفن قائلاً ، " سيدي ، لو قدّمت إليك تقييماً تحليلياً تقليدياً لبرنامج القاعدة النووي ، فسأقول ربما ليس لديهم . لكن لا يمكنني أن أؤكد لك أنهم لا يمتلكونها ". بعد ذلك أدلى نائب الرئيس بتعليق أعتقد أنه أسئ تفسيره منذ ذلك الحين، وهو " إذا كان هناك فرصة تبلغ واحداً بالمئة أنّ لديهم هذا السلاح، يجب عليك أن تتابعه كما لو أنّه صحيح ".

إنني مقتنع بأن نائب الرئيس لم يقصد أن يوحي ، كما أكد بعضهم، أن علينا تجاهل الدليل المعاكس و أنه ينبغي تطبيق مثل هذه السياسة على كل التهديدات التي يتعرض لها أمننا القومي . بل على العكس ، لقد أدرك نائب الرئيس بالفطرة أنه يجب إدارة قضية أسلحة الدمار الشامل بشكل مختلف لأن العواقب ستكون وخيمة – فمثل هذا الهجوم سيغير التاريخ . وشعرنا جميعاً بأن نائب الرئيس يدرك هذه القضية ولم أكن أشك في أنه مصيب تماماً في الإصرار على أنه عندما يتعلق الأمر ببحث أسلحة الدمار الشامل في أيدي الإرهابيين ، لا يعود بالإمكان تطبيق إدارة تقييم المخاطر التقليدية وعلينا استبعاد أي احتمال لنجاح الإرهابيين في سعيهم للحصول على مثل هذه الأسلحة . فلا يمكننا احتمال أي مفاجأة .

أشار الرئيس عليّ بأن أتوجّه إلى باكستان في اليوم التالي و أعرض مخاوفنا على الرئيس مشرف. فلم نكن نعرف الحد الذي ذهبت إليه " أمة تعمير نو " في تقديم المساعدة للقاعدة، لكن أي محادثة حميمة بين مسؤولين نووين باكستانيين وقيادة القاعدة عن الأسلحة النووية تثير مخاوف

خطيرة . نقلتنا طائرة البوينج 707 التابعة لسلاح الجو الأمريكي والتي خدمت ذات يوم كطائرة الرئاسة أنا ورولف وكيفن إلى باكستان . وفي أثناء الرحلة الطويلة والمتعبة ، كتبت نقاط الحديث التي أعتزم إثارتها على دفتر أصفر ، لخصتها من أحدث المعلومات التي أتلقاها من لانغلي على متن الطائرة . وقد بدأت بعض الخيوط تتكشف فيما يتعلق بإرتباطات "أمة تعمير نو" بالولايات المتحدة والبلدان الأخرى . كنت أنوى أن أعرضها على مشرف ؛ ما من خيار سوى الشفافية التامة لمساعدته في اتخاذ القرارات المناسبة لتهدئة مخاوفنا . وصلنا في منتصف الليل . وبعد استراحة قصيرة ، راجعت خطتي مع كبير ضباطنا في باكستان و ناقشت معه الخطوات التالية التي عليه أن يتبعها مع الاستخبارات الباكستانية بعد أن أغادر البلد . على افتراض أننا سنحصل على تعاون مشرف . وقد شدّد كبير ضباطنا على أن مضيفينا متوترون ؛ و أنهم ليسوا على يقين من طبيعة هذه الزيارة غير العادية التي أخطروا بها قبل يوم واحد. و أشار إلى أنّه على الرغم من أنّ الأمور هادئة في العاصمة "إسلام أباد"، فإنّ مستوى التهديد مرتفع وما من أحد يعرف بالضبط ما الذي سيحدث في تلك الأسابيع المتقلبة التي أعقبت الحادى عشر من سبتمبر . انضم السفير الأميركي ، ويندي تشامبرلين ، فى وقت لاحق إلينا وانتقلنا بسرعة في موكب شديد التسليح في رحلة قصيرة و لكن متوترة إلى القصر الرئاسي .

بعد تبادل عبارات التحية ، شرحت للرئيس مشرف أن الرئيس الأميركي أرسلنى لأنقل إليه بعض المعلومات الخطيرة جداً . وبدأت في وصف الاجتماع حول نار المعسكر بين أسامة بن لادن والظواهري ومسؤولي " أمة تعمير نو"، قلت : " سيدي الرئيس ، لا يمكنك أن تتصور مقدار الغضب الذي سيثور في بلدي إذا عُلم أنّ باكستان تدلّل العلماء الذين يساعدون بن لادن في الحصول على سلاح نووي ، فإذا استخدم مثل هذا السلاح، سيصب الشعب الأمريكي جام غضبه على من ساعد القاعدة في قضيتها " .

نظر مشرف في كلماتي بعناية لكنه بدأ بالردّ الذي توقعناه ؛ " لكن يا سيد تينت ، إننا نتحدث عن رجال يختبئون في الكهوف . ربما تكون لديهم أحلام بامتلاك مثل هذه الأسلحة ، لكن خبرائي يأكدون لي أنّ الحصول على أحدها بعيد عن متناولهم، أى ما يفوق كثيراً قدرتهم . ونحن نعرف في باكستان ما الذي ينطوي عليه مثل هذا الإنجاز " .

كنت أعرف أنّ من بين الخبراء لديه عبد القدير خان ، وهو يخضع منذ مدة للتحقيق بسبب جهوده غير المشروعة لنشر الأسلحة النووية . لكنني لم أشأ أن ينحرف النقاش نحو خان في هذه المرحلة . فسيكون هناك يوم آخر لهذا الموضوع . القضية المطروحة هي أمة تعمير نو ، وهم مسألة مختلفة تماماً . قلت : " خبراؤك مخطئون سيدي الرئيس " . و أخبرته أنّ حالة التجاذب الراهنة بين تصميم الأسلحة وصناعتها وتوافر المواد اللازمة يمكّن بضعة رجال مختبئين في موقع ناءٍ – إذا كان لديهم ما يكفي من المثابرة والمال والقلوب السوداء – من الحصول على سلاح نووي و استخدامه . ونقلت التنوير إلى رولف الذي أخذ يشرح بالتفصيل كم أصبح التهديد معقولاً في ظاهره ، و كيف تغيّر تفكيرنا من ناحية التعامل معه . وعندما فرغ من حديثه ساد الغرفة صمت وجيز وغير مريح . من الواضح أن الرئيس مشرف كان يفكّر في هذه المعلومات الجديدة . وردّ بثقة كبيرة ، سأل لماذا افترضنا أنّ القاعدة ستنظر إلى باكستان من أجل هذه المساعدة . وذكر معلومات أطلع عليها تتعلق "بالأسلحة النووية السائبة" في روسيا وتوافر المواد النووية في الاتحاد السوفياتي السابق كمصدر أكثر احتمالاً لتقديم المواد والمساعدة . ومع ذلك شعرت بأننا طرحنا قضيتنا . قلت : " دعني أقول يا سيدي ما الخطوات التي علينا اتخاذها " . و عرضت سلسلة من الخطوات التي تتطلب عملاً فورياً . ونصحته بأن يتفحص بعض العناصر في الجيش الباكستاني و مؤسسة الاستخبارات . وبالإضافة إلى إجراء تحقيق قوي مع "أمة تعمير نو" ، واقترحت أنّ هذا هو الوقت المناسب لتجري باكستان جرداً شاملاً لموادها النووية. فإذا نقص منها شئ ، يجب أن يعرف بذلك

هو و أنا . وسألت : " هل يمكنني أن أنقل إلى الرئيس بوش أنّ بوسعنا الاعتماد عليك ؟ " فردّ : " نعم ، بالطبع " . وعلى الرغم من أنه لم يمض على وجودنا أربع وعشرون ساعة، سرعان ما ظهرت صورة طائرة البوينج 707 الكبيرة التي زين هيكلها بكلمات " الولايات المتحدة الأمريكية " في وسائل الإعلام الباكستانية. و لأنّه لم يمض على الحرب عبر الحدود في أفغانستان سوى بضعة أسابيع ولا يزال القتال محتدماً ، فقد كان المسؤولون الأميركيون والباكستانيون قلقين من احتمال أن يتمكّن الإرهابيون في مكان ما بعد نهاية المَدرَج ومعهم صاروخ أرض جو جاهز لإسقاط هذا الرمز من رموز القوة الأمريكية . وعند الإقلاع ، نفّذ طاقم الطائرة صعوداً أكثر حدة مما كنت أتصور أن طائرة البوينج 707 القديمة قادرة عليه . ونصحنا بأن ننزل ستائر النوافذ في المقصورة المظلمة لأسباب أمنية، إلا إنني لم أتمكن من فعل ذلك. فإذا كانت طائرتنا ستهاجم ، فإنني أريد أن أرى الهجوم. ومن حسن الحظ أنّ المغادرة تمت بدون حوادث واسترخيت عندما عبرنا جبال الهملايا المغطاة بالثلوج تحت أشعة الشمس الساطعة .

عندما وصلت إلى واشنطن ، اتضح أن الرئيس مشرف كان صادقاً في كلامه . فقد ضاعفت السلطات الباكستانية جهودها في استجواب قادة "أمة تعميرنو" . كانوا يجرون بحثاً ممنهجاً لكل الأدلة التي سقناها إليهم . وعند وصول فريق من الخبراء الأميركيين ، أجروا اختباراً للكذب على الأعضاء الرئيسيين في أمة تعمير نو وحصلوا في النهاية على اعترافات أضافت تفاصيل جديدة إلى القصة. و أكد محمود ما سمعناه عن اجتماع أغسطس ٢٠٠١ م مع أسامة بن لادن ، بل قدّم أيضاً تصميماً تقريبياً مرسوماً باليد لتصميم القنبلة كان قد عرضه على قادة القاعدة. و أبلغ مستجوبيه بأنّه بحث مصاعب صنع السلاح . أخبر بن لادن أنّ "القسم الأكثر صعوبة في العملية هو الحصول على الموادالانشطارية اللازمة " . فردّ بن لادن : " ماذا لو كان لدينا المواد بالفعل ؟ " فاجأ ذلك محموداً . وقال إنه لا يعرف إن كان ذلك سؤالاً افتراضياً أم أن بن لادن كان يسعى وراء

تصميم يمكن استخدامه مع المواد الانشطارية أو المكونات التي حصل عليها بالفعل من مكان آخر.

ووفقاً للرواية ، عرض مسؤول كبير في القاعدة لم تحدد هويته علبة معدنية على الزوّار ربما تحتوي على مادة نووية أو إشعاعية ، الرواية غامضة بشكل مثير للإحباط . وقد تشارك هذا العميل في القاعدة أفكاره عن صنع جهاز بسيط لإطلاق السلاح باستخدام موارد متوفرة تجارياً . وفي الأشهر العديدة التالية ، حلّلنا كل دليل وبحثنا فى كل مكان في مسعى للحكم هل زوّدت " أمة تعميرنو" القاعدة بسلاح دمار شامل أم لا .

وتابعنا عدداً من الخيوط الأمريكية الخطيرة . ويبدو أننا شوشنا على المنظمة في مراحل مبكرة من مساعيها لتبادل منافعها مع القاعدة. لقد عملت السي آي إيه و الإف بي آي وعشرات الشركاء الأجانب جنباً إلى جنب بطرق لا مثيل لها وبأفضل ما يمكن للمرء أن يقوم به لإثبات العكس. ولقي هذا العمل نجاحاً من حيث التوصّل إلى أسلوب عمل جديدة للتعامل مع التهديدات الجديدة التي برزت في أعقاب الحادى عشر من سبتمبر. لكن ما لم نكن نعرفه في ذلك الوقت ، ولا نعرفه الآن ، كم عدد المجموعات الأخري التي تماثل أمة تعميرنو مازالت حرة طليقة .

لم يكن سبب رحلتي السريعة إلى باكستان زيغاً و إنما جزءاً من ظهور سلسلة من التهديدات النووية . وفي الوقت نفسه ، كانت مصفوفة التهديد لدينا تحمل إشاعات غير مؤكدة من عدد من أجهزة الاستخبارات الأجنبية الموثوق بها عن تهريب نوع من الأجهزة النووية الصغيرة إلى الولايات المتحدة و أنّ وجهته مدينة نيويورك. أرسلت وزارة الطاقة بهدوء معدّات كشف إلى نيويورك لاكتشاف مصدر غير متوقع للإشعاع قبل أن ينفجر مثل هذا الجهاز. وكان ذلك نمطاً يتكرر باستمرار. و لصبّ الزيت على النار ، زوّد كبير مدرّبي قوات القاعدة شبه العسكرية ، " ابن الشيخ الليبي المعتقل " المصريين بمعلومات تراجع عنها لاحقاً بأنّ القاعدة تعاونت مع الجريمة

الروسية المنظمة لإدخال " علب معدنية تحتوي على مواد نووية " إلى نيويورك. لم نستطع استبعاد أن هذه السيول من المعلومات الغامضة و غير المثبتة صحيحة جزئياً، و أن واشنطن قد تكون الهدف المقصود . ولم يكن يهم إذا كانت القاعدة تخطط لشن هجوم بأسلحة دمار شامل أو هجوم تقليدي واسع النطاق ، كما كان الكثيرون يخشون في الأيام والأسابيع التي تلت الحادى عشر من سبتمبر. و في هذه الفترة التي ارتفع فيها التهديد ، اتُخذ قرار بعدم تواجد الرئيس ونائب الرئيس في مكان واحد إذا كان ذلك ممكناً . وحِرصاً على استمرار عمل الحكومة ، كان نائب الرئيس يمضي كثيراً من الوقت في " مكان لم يُكشف عنه " . وكل من يستهزئ بإجراء تأمين القيادة القومية في أوقات الأزمة لا يعرف حقيقة التهديدات التي كنا نتعامل معها يومياً. فلم يكن لدى أي منا شك في أننا في حالة حرب. لم تتلاش مخاوفنا من قرب وقوع هجوم عندما انتهت سنة ٢٠٠١ م و بدأت سنة ٢٠٠٢ م.

نشر سليمان أبو الغيث ، و هو رجل دين من أصل كويتي والناطق الرسمي باسم القاعدة بيان على صفحات الإنترنت في يونيو ٢٠٠٢ م قائلاً: " أنّ للقاعدة الحق في قتل أربعة ملايين أميركي ، بينهم مليون طفل ، وتشريد ضعف هذا العدد، و إصابة و شلّ المئات و الألاف " . واستند مبرّر أبو الغيث لهذه الأرقام المهولة على نوع من الحساب السقيم الذي استنبط تقديراته من عدد المسلمين الذين قتلوا و جرحوا من قبل الولايات المتحدة على مر السنين . وكان من السهل استبعاد ما تشدق به باعتباره غلواً صادراً عن رجل مختل العقل. لكن كان علينا أن ننظر في احتمال محاولة أبو الغيث تبرير استخدام أسلحة الدمار الشامل في المستقبل بحيث تزيد حصيلة القتلى بكثير على ما سقط فى الحادى عشر من سبتمبر. وقد تكون مثل هذه الأسلحة نووية و ربما بيولوجية . وقد يكون هجوماً كبيراً غير تقليدي على بنيتنا التحتية. ولكن أي هجوم سيكون هجوماً كبيراً للوفاء بوعود القاعدة المستمرة " بتدمير اقتصادنا ". للقيام بذلك، عليهم وضع خطة لا تقل

تعقيداً عن مؤامرة الحادى عشر من سبتمبر، أعدتها على الأرجح منذ مدة طويلة خلايا نائمة تعمل في الولايات المتحدة. و بدأنا ما أصبح بحثاً لا نهاية له عن أي أدلة تفضي إلى الأفراد الذين قد يتناسبون مع هذا الوصف . وتبين أنه ليس هناك نقص في المسلمين الراديكاليين الذين يدرسون في الجامعات الأمريكية، ويتكلمون الإنجليزية بطلاقة ، ولديهم القدرة ، و ربما الحافز ، على إلحاق الأذى بهذا البلد . كان هناك شخصان يمثلان هذا النوع على الأقل . وتلاهم آخرون لفتوا انتباهنا في سيل من التحقيقات المتواصلة التي أجرتها السي آي إيه و الإف بي آي .

التحق محمد بايزيد ، يعرف أيضاً باسم أبي رضا السوري ، و مبارك الدوري بجامعة أريزونا في الثمانينات . و قد سلكا سبيل التطرف كطالبين إلى جانب العديد من الطلاب الآخرين الذين اقترنوا " بالجهاديين " الذين قاتلو ضد احتلال الإتحاد السوفياتي لأفغانستان . حضر بايزيد والدوري صلاة جماعة مع طلاب انضموا إلى القاعدة فيما بعد . رجال مثل وادي الحاج الذي ارتبط لاحقاً بمؤامرة الحادى عشر من سبتمبر. و بوجود مثل هؤلاء الأصدقاء ، لم يكن من المفاجئ أن نعرف أنّ الدوري وبايزيد انضما إلى أسامة بن لادن بعد أن انتقل من أفغانستان إلى السودان في أوائل التسعينيات. كشفت مراجعة ملفي هذين الرجلين أنهما شاركا في الإهتمام بأسلحة الدمار الشامل . تدرب بايزيد، وهو سوري ، بوصفه عالماً فيزيائياً، في حين تدرب الدوري ، وهو عراقي ، بوصفه عالماً بعلم الزراعة. وكان للرجلين علاقة مباشرة ببن لادن و ساعدا في إدارة أعماله ورعى مصالحه في السودان، و طوّر الإثنان علاقات عمل مع هيئات سودانية ذات صلة بأسلحة الدمار الشامل. و أسسا مؤسسات تجارية استخدمت كواجهة لشركات تعمل على تطوير أسلحة نووية وبيولوجية . بعد أن ظهر اسم بايزيد مرتبطاً بمحاولة القاعدة شراء اليورانيوم في السودان ، أرسل الإف بي آي عملاء إلى السودان لمقابلة الرجلين. و أخبر العملاء عند عودتهم

بأنهم لم يستطيعوا التوصّل إلى أسس كافية لتوجيه اتهام إلى أي من الرجلين يبرر طلب تسليمهما ، على الرغم من شكوكهم الكبيرة .

في أحد اجتماعات الساعة الخامسة في منتصف عام ٢٠٠٢ م ، اقترح رولف موات لارسن المحبط أننا إذا كنا لا نستطيع اعتقال الرجلين ، فربما نتمكنّ من دفعهما إلى تغيير الجانب الذي يقفان معه. أرسلت رولف إلى إفريقيا مع أوامر بالاتصال بإثنين من العلماء الدارسين في أمريكا وفوّضته بمحاولة إنقاذ الأرواح بدلاً من قبضها.

كانت مهمة غير عادية و رأينا أنّ من الأفضل الاضطلاع بها بالتعاون مع جهاز المخابرات المحلي . وجد رولف أنّ المخابرات المحلية راغبة في الاستماع إلى اقتراحنا طلب مساعدتها في التحدث إلى الرجلين كلاً على حدا في موقع محايد. لن يكون هناك إكراه أو تهديد ، و إنما إقناع فحسب. و أوضح رولف المخاطر التي تتهدّدنا جميعاً إذا مهد الطريق إلى أي هجوم نووي أو بيولوجي ضد الولايات المتحدة فى هذا البلد. داعب مسؤول المخابرات المحلي لحيته وابتسم قائلاً : " إنني أدرك التهديدات الأمريكية جيداً . لذا فإنني أعرف أن ذلك ليس تهديداً . إنه معيار للسيطرة على أي بلد ... التعاون في مثل هذه المسألة أمر حكيم للمحافظة على الحضارة كما يعرفها كلانا ... ولهذا السبب سأوافق على طلبك " .

كانت اللقاءات كاشفة . لم تكون هناك أي تسوية ، أو أرضية مشتركة ، أو أي إحساس مشترك بالكرامة و الإنسانية مع منتسبي القاعدة الاثنين. بل على العكس من ذلك ، فقد أفصحا عما يشتركان به من كراهية و الحاجة إلى الإنتقام. ناشد رولف الرجلين الاتفاق على الاختلاف فى الرأى بشأن الخلافات فيما بينهما، والتركيز على المجال الضيق للمصلحة المشتركة ، و الإحساس المشترك بالغاية الأخلاقية لبذل كل ما بوسعنا لمنع تصاعد الحرب التي ، إذا لم يكبح جماحها ، ستؤدي إلى موت آلاف النساء و الأطفال الأبرياء دون تمييز. وبعد صمت طويل ، ردّ أحدهما

بنبرة هادئة وواثقة ، " لا ... أعتقد أنّ من المشروع قتل الملايين منكم لأنّكم قتلتم الكثير منا " . نظر رولف طويلاً في عينيه الداكنتين . الآن أدرك رولف حساب أبو غيث .

كان الخوف من اهتمام القاعدة بأسلحة الدمار الشامل أكثر من أن ينظر إليه من زاوية أكاديمية، فطالما استبد بنا القلق بشأن أمن المواد النووية في الإتحاد السوفياتي السابق . وكلما طلبنا من الروس تطمينات بعدم نقصان أى من المواد التى لديهم، كنا نتلقى رداً غير مبالٍ بأنّ كل شئ " تحت السيطرة " . وقد أصبح الرئيس بوتين أكثر صراحة بعد الحادى عشر من سبتمبر بوقت غير طويل ، عندما عرض الرئيس بوش ما أطلع عليه عن "أمة تعمير نو" و سأل بوتين وجهاً لوجه إذا كانت روسيا قادرة على حصر كل المواد التي لديها . قال الرئيس الروسي ، مختاراً كلماته بعناية ، إنّه واثق من أنّ باستطاعته حصر كل شئ في أثناء رئاسته . لم يكن راغباً في التكفّل بالفترة التي سبقت ذلك ، في عهد نظام يلتسين . لقد كان رداً متعمد الغموض ، لكنه مع ذلك يوحي بأنّ علينا الاهتمام على وجه الخصوص بحوادث التهريب في السنوات الأولى التي أعقبت تفكك الإتحاد السوفياتي .

بين نهاية ٢٠٠٢ م وربيع ٢٠٠٣ م . تلقينا سيلاً من التقارير الموثوقة بأنّ كبير قيادي القاعدة في المملكة العربية السعودية يتفاوض على شراء ثلاث أجهزة نووية روسية . وقد نقل زعيم القاعدة في السعودية أبوبكر العرض مباشرة إلى قيادة القاعدة في إيران ، حيث يقال إن سيف العدل و عبد العزيز المصري (يوصف بأنّه المسؤول النووي للقاعدة) رهن الإقامة الجبرية التي فرضها النظام الإيراني عليهما . من الواضح أن قيادة القاعدة تعلمت كثيراً من مغامراتها في سوق المواد النووية في أوائل التسعينيات . أبلغ سيف العدل أبابكر بأنّ أي سعر لن يكون مرتفعاً إذا تمكّنوا من الحصول على مثل هذه الأسلحة . غير أنه حذر أبابكر بأنّ القاعدة لدغت من بعض

المحتالين في الماضي و أنّه ينبغي استقدام خبراء باكستانيين إلى المملكة العربية السعودية لمعاينة البضاعة قبل الشراء .

ما إن علمت بمفاوضات القاعدة على شراء مكّونات نووية في السعودية ، حتى اتصلت بالسفير السعودي في الولايات المتحدة ، الأمير بندر ، وقدّمت له كل التفاصيل التي لدي . على غرار كل الأشخاص الذين يكتشفون هذا التهديد لأول مرة ، بدا بندر متشككاً . وتساءل عن قدرة القاعدة على الحصول على السلاح و رغبتها في استخدامه داخل المملكة . قلت : " لا ندري إذا كانوا يرمون إلى تفجير السلاح داخل بلدكم أو استخدام المملكة العربية السعودية كنقطة عبور . لكن في كلا الحالتين لديك مشكلة كبيرة " . و أوضحت أنّه يوجد لدى الاستخبارات السعودية و الأمريكية معلومات حديثة عن رجال دين مؤيدين للقاعدة يناقشون في حكمة مهاجمة العائلة المالكة في السعودية وكانوا يناقشون بتعابير غامضة حكم القرآن بشأن استخدام أسلحة جديدة لا تميز بين الضحايا . وقلت لبندر : " حتى إذا لم يتوجّهوا نحو القيادة السعودية ، فإنّ انفجار سلاح نووي وسط منشأة توزيع النفط الرئيسية لديكم سيدمر اقتصادكم واقتصادنا . وما من شئ تحبه القاعدة أكثر من ذلك " . بدا الخوف واضحاً على بندر من عواقب التهديد المتجمع ، فوافق واقنع حكومته بتعقب القاعدة داخل المملكة و اعتقالهم . وكان ذلك نقطة تحول أخرى في عزم السعوديين على التعامل مع تهديد المتطرفين كمشكلة تهدد وجودهم.

بين ربيع وصيف ٢٠٠٣ م نظّم السعوديون ، بمساعدة غير مسبوقة من السي آي إيه ، سلسلة من الأعمال الاستباقية الرائعة التي أحبطت عدداً من هجمات الإرهابيين في المملكة ، و قوضت قيادة القاعدة في المملكة خلال العملية . وعلى الرغم من أنّ القاعدة كانت تميل إلى شن الهجمات التقليدية ، فقد كشفنا للمرة الأولى إشارات واضحة على رغبتها في استخدام أسلحة السيانيد في الهجمات في المستقبل ، حيث عثر على السيانيد في مخبأ أحد الإرهابيين. و عبر

المضيق في البحرين ، علمنا أن إرهابيين لديهم ارتباطات قوية بالمتطرفين السعوديين يخططون لتنفيذ هجوم بغاز السيانيد على مترو الأنفاق في مدينة نيويورك . فقد ابتكر المتطرفون جهاز توزيع ذكي مصنوع محلياً يدعى مبتكر(يعنى فى العربية كلمة اختراع) و هو جهاز قاتل يمكن صناعته بأكمله من مواد متاحة . وعلى الرغم من أن خلية البحرين كانت تعمل باستقلالية عن القاعدة، فقد اتبعوا البروتوكول غير المكتوب بين المتطرفين بطلب إذن من قيادة القاعدة المركزية لشن الهجوم . و مما يثير الخوف أن الرد جاء من أيمن الظواهري نفسه في أوائل سنة ٢٠٠٣ م بإلغاء العملية واستدعاء المنفذين الذين كانوا في نيويورك بالفعل . إذ " أننا نفكر في شئ أفضل " . كانت هناك تخمينات لا نهاية لها على أعلى المستويات فيما يتعلق بالتفسير الصحيح لتعليق الظواهري الغامض. و ما زلنا لا نعرف ما الذي عناه، غير أننا نعرف أن جهاز السيانيد مبتكر لم يلبِ طموحات القاعدة بالقدر الكافي . ولذلك استشارت الجماعة عدة رجال دين سعوديين متطرفين في مسعى الحصول على فتوى تضفي المشروعية على استخدام أسلحة الدمار الشامل . حتى أن سفر الحوالي ، و هو رجل دين راديكالي كتب رسالة مفتوحة إلى الرئيس بوش في أعقاب الحادى عشر من سبتمبر أحجم عن تأييد مثل هذه الفتوى . غير أن الإرهابيين وجدوا ضالتهم في الشيخ ناصر بن حامد الفهد الذي أعطى القاعدة ما تحتاج إليه . ففي وثيقة نشرت في مايو ٢٠٠٣ م بعنوان " رسالة تجوّز استخدام أسلحة الدمار الشامل ضدّ الكفار " ، رأى الفهد أنّ وقوع أعداد كبيرة من القتلى المدنيين ، يصل إلى الملايين ، يصبح مبرراً إذا جاء كجزء من هجوم يرمي إلى إلحاق الهزيمة بالعدو .

في أعقاب هجمات القاعدة في الرياض في مايو ٢٠٠٣ م أوقف السعوديون عدداً من كبار قادة القاعدة المسؤولين عن التخطيط للهجمات . وكان من بينهم الشيخ ناصر بن حامد الفهد . وفي أثناء الإعتقال ، أكد أن القاعدة تفاوضت على شراء أجهزة روسية ، لكنّه ادعى الجهل حيال طبيعة

هذه الأجهزة ، وما إذا كانت القاعدة قد حصلت عليها بالفعل . وبعد نحو ستة أشهر رهن الإعتقال ، ظهر الفهد على التلفزيون السعودي وتراجع عن فتواه و عبر عن الندم على الخطأ في تفسيره الديني .

بعد عمل كل ما يمكن لإبطال أي تهديد في المملكة العربية السعودية ، نقلنا اهتمامنا إلى قيادة القاعدة في إيران . وسعينا لمعرفة المزيد عن اهتمام القاعدة بأسلحة الدمار الشامل عبر كل وسيلة متاحة أمامنا . وكان لدى العديد من ناشطي القاعدة ما يقولونه عن اهتمام المنظمة بأسلحة الدمار الشامل . وكثير منهم تنصلوا بسرعة أيضاً من كثير مما أبلغونا به . وعلى الرغم من عدم اليقين الكبير ، فإننا كنا مهتمين أيضاً بما تمكنا من تأييده بمعلومات أخرى متوافرة لدينا . وقد أبلغنا أحد كبار الناشطين في القاعدة أنّ محمد عبد العزيز المصري ، الموقوف في إيران ، يدير برنامج القاعدة النووي و أنه أجرى تجارب بالمتفجرات ليختبر تأثيرات إنتاج مفعول نووي . فمررنا المعلومات إلى الإيرانيين على أمل أن يدركوا مصلحتنا المشتركة في تجنب أي هجوم على المصالح الأمريكية .

مثَّلَ عدم قدرتنا على تحديد مصير الأجهزة الروسية قلقاً كبيراً ، ليس لي فحسب و إنما للبيت الأبيض. اصطحبت معي رولف إلى اجتماع مع الرئيس وكونداليزا رايس في أوائل صيف ٢٠٠٣ م في ذروة حملة الاعتقالات التي نفذها السعوديون وسيل التهديدات المتعلقة بالتخطيط لهجوم محتمل في الولايات المتحدة . كان الرئيس مشغول البال كغير عادته. سألني كيف يُبْلَى الروس في الحرب على الإرهاب . فأخبرته بأنّ مساهمتهم مخّيبة للآمال. كانوا مشغولين في الشيشان ولم يكونوا مُمَثِّلين في الحرب العالمية على الإرهاب، ليس كما نعرفها نحن حتماً. بدا الإحباط واضحاً على الرئيس، فسأل كوندي رايس عما يتعين القيام به لإشراك الروس والوصول إلى جوهر التهديد الحالي. أوصت بأن اتصل بوزير الدفاع "إيفانوف" ، و أشرح مخاوف الرئيس ،

والحصول على تأكيدات من إيفانوف بأن تكثف وكالتا استخباراتنا عملها لحل مسألة تهديدات أسلحة الدمار الشامل.

كان وزير الدفاع إيفانوف ميالاً إلى تقبل مخاوفنا ووافق على الفور على استقبال ممثّلين عن السي آي إيه في موسكو . طلبت من رولف السفر إلى موسكو وتنسيق الاجتماعات مع الاستخبارات الروسية. وفي مقر قيادة الاستخبارات الروسية (الكي جي بي) القديم في موسكو، و تحت صورة للرئيس السابق للكي جي بي الحذر أندروبوف، حث رولف نظراءنا الروس ليعملوا معنا بطرق كانت أعمق من أن يُسْبَرَ غَوْرُها في أثناء الحرب الباردة . هزّت الرؤوس إذ وافق الجميع على أنّ مصالح الأمن القومي لبلدينا أكثر قرباً مما قد يظن المرء. وبعد الانتقال من ابداء بعض الملاحظات الافتتاحية الواعدة، سرعان ما اتضح بأن الضغط على مستوى عالٍ لم يهيئهم بالصورة الحميمية للتعاون الملموس والمطلوب للتعامل مع تهديد أسلحة الدمار الشامل. وبعد التحليل النهائيّ، اتضح أن الوضع لا يزال لعبة جاسوس مقابل جاسوس، فقد أراق الجانبان الكثير من الدماء لسنوات طويلة بحيث لا يتوقع حدوث اختراق في مثل هذه القضية. وكما هو متوقع دوّن الروس ملاحظات كثيرة و طرحوا أسئلة ثاقبة تتعلّق بالمعلومات التي نتشاركها. و لكن الحوار أصبح مربكاً عندما بدأنا بطرح الأسئلة. فلم يكن بوسع الروس إلقاء الضوء على التقارير التي تلقيناها عن المواد المفقودة من الإتحاد السوفياتي السابق. و لم يقروا بأسماء العلماء السوفيات السابقين الذين تفيد التقارير بأنّهم تعاونوا مع القاعدة. و رفضوا بحث أى مسألة تتعلّق بأمن منشآتهم النووية و أسلحتهم النووية، بما في ذلك التقارير التي حدّدت مصادرها للمسؤولين الروس بشأن السرقات المحتملة " لحقيبة الأسلحة النووية " الروسية. كان رولف يشعر بالاحباط عندما عاد إلى واشنطن ، لكنّه قال إنّه من غير المعقول توقع ما هو أكثر من الروس في قضايا الأمن الداخلي

الحسّاسة. و إذا كنا نريد تحسين طبيعة التفاعل الاستخباراتي بيننا، ينبغي إحداث تحول جوهري في السياسة. وعندما تقاعدت ، كنا لا نزال نحاول عبور الجسر .

ومن حُسن الحظِّ أننا تَحَصَّلنا في وقت غير بعيد عن ذلك الاجتماع على الدليل الذي كنّا نأمل ألا يكون موجوداً بشأن وجود مواد إنشطارية للبيع. ففي صيف ٢٠٠٣ م ، علمنا أنّ المسؤولين اعتقلوا شخصاً يعبر الحدود من جورجيا إلى أرمينيا حاملاً مقداراً صغيراً من اليورانيوم عالي التخصيب. وعلى الرغم من أن الكمية المضبوطة كانت تقل كثيراً عن المطلوب لصناعة سلاح نووي ، فإنّه لم يعد بوسعنا أن نتغاضى عن أنّ الجريمة المنظمة ، وشبكات التهريب ، والمسؤولين الفاسدين داخل المنشآت النووية يعملون بشكل متناغم لإيجاد زبون – أي زبون – راغب في دفع السعر الجاري لمثل هذه البضاعة. وعلى الرغم من اعتراض هذه الشحنة، فإنّني لست مقتنعاً بأننا نستطيع استبعاد احتمال أن تكون إحدى الجماعات الإرهابية قد اشترت يوماً ما ما يكفي من المواد الإنشطارية لصنع قنبلة نووية قابلة للنجاح.

وبقدر ما كنا قلقين بشأن المؤامرات النووية ، كنّا نحاول بكل الجهد أن نضع أيدينا على كل ما يمكننا من بن لادن ومحاولات مساعديه الحصول على أسلحة بيولوجية وكيميائية . فقد كان اهتمامهم بالسموم القاتلة الخام مثل – السيانيد والبوتولينوم ، والريسين ، وما إلى ذلك مثبتاً.

اكتسب أبو مصعب الزرقاوي ، و هو من شركاء القاعدة الكبار ، لنفسه شُهرة بإدارة مختبر للكيمياء والسموم ومنشأة تدريبية في بلدة خورمال في شمال العراق بين مايو ٢٠٠٢ م وأوائل ٢٠٠٣. ووَطَد الزرقاوي سمعته الرهيبة باكراً بتجربة غاز السيانيد المميت الذي طوّره في خورمال على أحد شركائه السيئى الحظ فنجح السم ومات المتطرف الغافل شر ميتة. وقد أحضر الزرقاوي مساعديه معه منذ أن كان يدير معسكراً لتدريب الجهاديين في هرات بأفغانستان . وتمكن من إقامة علاقات مع جزائريين ومغاربة وباكستانيين وليبيين ومتطرفين عرب آخرين مُقِيمين في

جميع أنحاء أوروبا . وبعد عدة شهور من العمل الدؤوب على تحليل الصلة ، تمكنا من تحديد الخلايا الإرهابية المرتبطة بالزرقاوي في أكثر من ثلاثين بلداً .

دبَّر هذا الإتحاد الطليق للجماعات سلسلة من مؤامرات استخدام السموم في أوروبا التي بدأت تكتمل في ديسمبر ٢٠٠٢ م. وشكل التفكيك المنسّق لهذه الشبكة التى تتخذ أوروبا مقراً لها أحد النجاحات العظيمة للحرب على الإرهاب في أعقاب الحادى عشر من سبتمبر. فقد تشارك تحالف عالمي ضم أكثر من أربعة وعشرين بلداً المعلومات الاستخباراتية ونجحوا في إنجاز هذا العمل في الوقت المحدد تقريباً. وتم إلقاء القبض على العديد من الرسل والعملاء السريين . وأحبطت المؤامرات في المملكة المتحدة و فرنسا وإسبانيا و إيطاليا ، وغيرها من البلدان ، وأنقذت العديد من الأرواح . وتمكنا من إبقاء الرئيس ونائب الرئيس والمسؤولين الكبار في الإدارة على إطلاع مستمر على التهديدات واستجابتنا السريعة لها. وبعد مُدّة وجيزة من غزو العراق ، قصف الجيش الأمريكي معسكر الزرقاوي في خورمال . وحصلنا على تقرير استخباراتي من مصدر موثوق وعينات جنائية تؤكد إنتاج السموم ومواد سامة في المعسكر. أما بالنسبة إلى مصير الزرقاوي ، فقد أشارت معلومات من أحد المصادر أنّه ربما هرب إلى بغداد ، حيث خطط لقيّادة تمرّد ضد القوات الأمريكية . (واستمر الزرقاوي في لعب دور رئيسي في التمرّد حتى مقتله في منتصف سنة ٢٠٠٦) .

من الصلات الرئيسية الأخرى للقاعدة بالأسلحة البيولوجية يزيد صفوت، شريك الجماعة الإسلامية الذي استضاف أول لقاء عملي لخاطفي طائرات الحادى عشر من سبتمبر في شقته بالعاصمة الماليزية كوالالمبور في يناير ٢٠٠٠ م . بل أن صفوت قدّم الغطاء التجاري لرحلة زكريا الموسوي إلى الولايات المتحدة . كما أن صفوت يصف نفسه بأنّه " الرئيس التنفيذي " لبرنامج القاعدة للجمرة الخبيثة. درس صفوت في الولايات المتحدة ، ولديه خلفية عسكرية ماليزية

، ويتميّز بأوراق اعتماد متطرفة لا غبار عليها . وفى سنة ٢٠٠٠ م ، قدمه الحنبلي لأيمن الظواهري شخصياً باعتباره الرجل الذي تمكن من الاشراف على برنامج القاعدة للأسلحة البيولوجية . لم تدّخر القاعدة جهداً في سعيها للحصول على أسلحة بيولوجية . ففي سنة ١٩٩٩ م جنّد الظواهري عالماً آخر ، الباكستاني رؤوف أحمد ، لإقامة مختبر صغير في قندهار بأفغانستان يتم فيه تخزين مجهود الأسلحة البيولوجية . وفي ديسمبر ٢٠٠١ م وجد محلّل ثاقب الذهن لأسلحة الدمار الشامل في السي آي إيه الدليل الأوّلي الذي اتبعناه وقادنا في نهاية المطاف إلى تفكيك شبكات القاعدة للجمرة الخبيثة . فقد تمكنّا من التعرّف على رؤوف أحمد من رسائل كتبها إلى أيمن الظواهري . وكشفنا لاحقاً دور صفوت المركزي في البرنامج . وحدّدنا موقع مختبر رؤوف أحمد في أفغانستان . و حددنا المبنى الذي ادعى صفوت أنّه خزن فيه الجمرة الخبيثة في قندهار.نفَّذَنا عمليات أدّت إلى اعتقال وتوقيف العديد من ناشطي الجمرة الخبيثة في عدة بلدان. أظهر الكشف المذهل الناتج عن قصة النجاح الاستخباراتي هذه أنّ برنامج الجمرة الخبيثة طوّر بمُحاذاة التخطيط لهجمات الحادى عشر من سبتمبر. وأفضل ما استطعنا تحديده هو أن برنامج الظواهري الذي كان مُنْغمِساً فيه أنهى في صيف ٢٠٠١ م عندما أطلع صفوت نائب زعيم القاعدة ، إلى جانب الحنبلي ، على التقدم الذي أحرزه في عزل الجمرة الخبيثة . وكانت العملية برمتها تدار على أعلى مستوى في القاعدة باستقلالية تامة . و بعد أن أكمل صوفت هذه المرحلة من عمله، هرب من أفغانستان في ديسمبر ٢٠٠١ م و ألقت السلطات القبض عليه وهو يحاول التسلّل عائداً إلى ماليزيا. وأعتقلت السلطات الباكستانية رؤوف أحمد في ديسمبر ٢٠٠١ م . وكنا نأمل في أن يكون ذلك بالإضافة إلى العديد من الإجراءات قد أبطل مفعول التهديد بالجمرة الخبيثة ، بشكل مؤقت على الأقل .

ومع ذلك أضحي التهديد النووي التهديد الرئيسي من بين كل محاولات القاعدة للحصول على أسلحة الدمار الشامل. و إنّني مقتنع بأنّ هذا هو الطريق الذي يريد أسامة بن لادن وعملاؤه

السرِّيون أن يسلكوه بتهوُّر. فهم يدركون أن التفجيرات بواسطة السيارات والشاحنات والقطارات والطائرات تفرد لهم بعض العناوين الرئيسية في نشرات الأخبار. غير أنَّهم إذا تمكّنوا من تفجير سلاح نووي فسيدخلون فى سجلّ التاريخ . وستضع مثل هذه الحادثة القاعدة في مصافّ القوى العظمى وتحقق تهديد بن لادن بتدمير اقتصادنا و إحلال الموت في كل بَيْت أمريكي . وحتى في أحلك أيام الحرب الباردة كان يمكننا أن نعول على حقيقة أنّ السوفيات يريدون العيش مثلنا . غير أن الأمر ليس كذلك مع الإرهابيين . فالقاعدة تتفاخر بأنّها تتقبل الموت بينما نخشاه نحن. لقد تعلّمنا أنّ حصول جماعة إرهابية على سلاح نووي لا يقع خارج عالم الممكن . وغالباً ما تساءلت لماذا يجد الكثير من الناس صعوبة في قبول هذا الواقع . في أحد المشاهد في كتاب بعنوان " بروميثيوس الأمريكي " من تأليف كاي بيرد ومارتن شيروين ، وصف أبو القنبلة النووية الأمريكية ج . روبرت أوبنهايمر في سنة ١٩٤٦ م الخوف من الإرهاب النووي . فعندما سئل في جلسة استماع مغلقة في مجلس الشيوخ " إذا كان بوسع ثلاثة أو أربعة رجال تهريب وحدات من قنبلة نووية إلى نيويورك وتفجير المدينة بأكملها " ، رد أوبنهايمر : " يمكن حدوث ذلك بالطبع، وبوسع هؤلاء تدمير نيويورك " . فسأل أعضاء مجلس الشيوخ الذين ارتسمت على وجوههم الدهشة : " ما الأداة التي تستخدمها للكشف عن قنبلة نووية مخبأة في مكان ما في المدينة ؟ " فأجاب أوبنهايمر : " مفكّ البراغي(لفتح كل صندوق أو حقيبة) " . كان أوبنهايمر يدرك بالفِطرة ما تعلّمناه بالممارسة : أنّ الإرهاب النووي كان ولا يزال الآن احتمالاً مخيفاً ، ومن الصعب جداً إيقافه .

يتحلّى الإرهابيون بصبر شديد. فالخطط الأولى لمهاجمة مركز التجارة العالمي أعدّت قبل عقد من سقوط البرجين التوأمين . و مؤامرة إسقاط طائرة متوجهة من المملكة المتحدة إلى الولايات المتحدة ، وهي المحاولة التي أحبطت في صيف ٢٠٠٦ م ، تحاكي مؤامرة مشروع بوجينكا . ما مقدار الجهد الذي ترغب القاعدة في بذله و كم من الوقت ترغب في انتظاره لكي تشنّ

الهجوم النهائي ؟ ما هو الهجوم الذي وصفه أيمن الظواهري بأنّه " شئ أفضل " عندما ألغى الهجوم في سنة ٢٠٠٣ م على مترو الأنفاق في نيويورك ؟ هجوم نووي واحد يمكن أن يغير مجرى التاريخ . و أشد ما أخشاه أن يكون هذا ما يعتزمونه بالضبط .

الفصل الخامس عشر

تاجر الموت والعقيد

قال الرئيس جون ف . كينيدي في مقّر قيادة السي آي إيه ، ٢٨ نوفمبر ١٩٦١ م :

"الأمر ليس سهلاً دائماً . نجاحاتكم لا يُحتفى بها . فيما يصاحب إخفاقاتكم طبل و زمر . لكنني واثق من أنكم تدركون أهمية عملكم و ضرورته . وكيف سيُحكم على اهمية مساعيكم على مدى التاريخ الطويل ".

وبعد مرور نصف قرن تقريباً لا تزال كلمات الرئيس كينيدي تتسم بالصدق. فغالباً ما تكون المشكلة من صنع أجهزة الإستخبارات نفسها. فنحن نحجم عن التحدّث عن نجاحاتنا علناً . و من المفيد أحياناً تصور الإنجازات الإيجابية تصوراً خاطئاً لتفهم على أنّها إخفاقات لتضليل الحكومات الأجنبية و المنظمات الشريرة.

حدثت عمليتان ناجحتان فى أثناء ولايتي ولكن لم تحظيا سوى باهتمام محدود على المستوى العام. فتفكيك شبكة عبد القدير خان لنشر الأسلحة النووية و نزع أسلحة البرنامج الليبي لأسلحة الدمار الشامل هما نموذجان كلاسيكيان لنوع العمل الذي يمكن بل يجب أن تقوم به أجهزة الاستخبارات الأمريكية. إذا أردنا تجنب مستقبل كارثي. كانت شبكة عبد القدير خان لنشر الأسلحة النووية مشروعاً ركزنا عليه طوال سنوات عملي السبع كمدير للاستخبارات المركزية . وكانت جهودنا ضد هذه المنظمة من بين أوثق الأسرار التي احتفظت بها الوكالة . فغالباً ما كنت أطلع الرئيس فقط على التقدّم الذي أحرزناه .

يعتبر عبد القدير خان ، وهو عالم معادن ، أبًا لبرنامج الأسلحة النووية الباكستانية. و قد درس في أوروبا و حصل على شهادة الدكتوراة من بلجيكا في سنة ١٩٧٢ م. عمل في صناعة الطاقة النووية في هولندا وعاد إلى باكستان في سنة ١٩٧٦ م لمساعدة بلده في منافسة الهند التي

كانت قد أجرت أول تفجيراتها النووية. و قد سرق خان من روؤسائه الأوروبيين برامج عمل تفصيلية و معلومات منحت باكستان انطلاقة سريعة لدخول العصر النووي.

(أدانت محكمة هولندية في سنة ١٩٨٣ م خان غيابياً بتهمة التجسس النووي ، لكن نقض الحكم بعد سنتين بناءً على نقطة قانونية) .

في حقبة السبعينيات والثمانينات، قاد خان جهوداً حثيثة لبناء منشأة لتخصيب اليورانيوم . و قد حظيت جهوده بتقدير كبير بحيث أعادت باكستان في النهاية تسمية منشأة الأبحاث لتحمل اسم "مختبر خان للأبحاث" تكريماً له . وفي سنة ١٩٧٩ م ، علقت الولايات المتحدة المساعدة العسكرية و الإقتصادية التي تمنحها إلى باكستان بسبب مخاوفها من محاولات ذلك البلد تخصيب نوع من اليورانيوم يستخدم فى صناعة الأسلحة النووية. وفي أواخر الثمانينات و أوائل التسعينيات ، بدأت التقارير تظهر في وسائل الإعلام و سواها عن أنّ باكستان نجحت في إنتاج ما يكفي من المواد الإنشطارية لصنع قنبلة ذرية . سرت إشاعات طوال سنوات عديدة ووردت معلومة استخبارية تفيد بأنّ خان تبادل خبراته الخطيرة جداً خارج حدود باكستان. وكان نطاق اتصالاته الدولية واسعاً في الصين و كوريا الشمالية و في كل أنحاء العالم الإسلامي. وفي بعض الحالات ، كانت هناك إشارات على أنّه يتاجر بالخبرة و المواد النووية مقابل معدات عسكرية أخرى . على سبيل المثال ، مساعدة كوريا الشمالية في مساعيها لتخصيب اليورانيوم مقابل تكنولوجيا الصواريخ البالستية، و كان من الصعب جداً معرفة ما الذي كان يُدبِّره بالضبط ، أو إلى أي حدّ يقوم بجهوده بتكليف من الحكومة الباكستانية و تأييدها. كان يفترض أنّ خان موظف حكومي بسيط ذو راتب متواضع و مع ذلك كان يعيش نمط حياة فاخره و لديه إمبراطورية استمرت في توسعها بشكل دراماتيكي. وعلى الرغم من أنّ السي آي إيه كابدت من أجل اختراق عمليات انتشار الأسلحة النووية و سبر أغوار تعاملاتها ، فإن التوتر يكون سيد الموقف عندما تتحرّى هذه الأنواع من الشبكات ، فالغريزة

الطبيعية تدفعك إلى التصرّف على الفور عندما تعثر على معلومة استخباراتية تتعلق بانتشار الأسلحة النووية . و لكن عليك أن تقاوم ذلك الدافع والتحلي بالصبر لتعقب الصلات إلى حيث تقودك ، بحيث إنّه عندما يبدأ العمل ، يمكنك أن تأمل باستئصال الشبكة من جذورها و فروعها ، ليس باستئصالها من أعلى مما يسمح بإعادة تكوينها ونموّها ثانية .

وفي أواخر التسعينيات ، كان يدير وحدة مكافحة إنتشار الأسلحة النووية في السي آي إيه ، المسؤولة عن هذا المسعى ، ضابط في الاستخبارات أخبرني أنّه قرأ وهو طفل كتاباً عن قصف هيروشيما و أنّه اعتراه روعٌ من الدمار الذي يمكن أن تخلفه قنبلة نووية . ووصف الكتاب كيف طبعت القنبلة التي قتلت ما يقدّر بسبعين ألف نسمة صورة خيالات ثلاثة أشخاص على أحد الجدران . الأشخاص أنفسهم تبخّروا ، إلا أنّ صورتهم الذهنية انطبعت في ضمير الضابط و أصبحت جزءاً من الدافع الذي حفزه بعد سنوات على العمل على منع وقوع الأسلحة النووية في الأيدي غير الملائمة . أدركت الوحدة الصغيرة التي تقوم بهذا الجهد أنّ من المستحيل اختراق شبكات نشر الأسلحة النووية باستخدام أساليب جمع المعلومات الاستخبارية التقليدية . و لا تسمح لي الاعتبارات الأمنية بوصف الأساليب التي استخدمناها .

عملنا بصبر على وضع أنفسنا في موضع الاتصال بالأفراد و المنظّمات التي كنا نعتقد أنّها تشكل جزءاً من المشكلة الكلية لانتشار الأسلحة النووية . و كما هو الحال في الغالب ، انضم زملاؤنا في الاستخبارات البريطانية إلى مساعينا و كان دورهم مهماً جداً في العمل ضدّ هذا الهدف. وعرفنا لأوّل مرّة حجم شبكة خان التى تعمل فى الخفاء، و توسعت ما بين باكستان و أوروبا و الشرق الاوسط و آسيا. و قد كونا فكرة عن المنظمة ، و كشفنا فروعها وعلماءها والشركات التي تشكّل واجهة لها وعملاءها و ماليتها ومصانعها . وتمكن جواسيسنا من اختراقها عبر سلسلة من العمليات الجريئة على مدى عدة سنوات .

كان ما علمناه من عملياتنا فوق العادة . فقد أكدنا أنّ خان يسلم زبائنه أشياء مثل أجهزة الطرد المركزي لتخصيب اليورانيوم غير المشروعة . وكان عبدالقدير خان العقل المدبر وراء كل مساعي الانتشار النووي فيما يتعلق بكوريا الشمالية وجنوب أفريقيا و قد أطلعنا الرئيس على ما توصلنا إليه . قال أحد ضباطنا : " سيدي الرئيس ، بالمعلومات التي أصبحت بين أيدينا الآن من البداية إلى النهاية – عن تخصيب اليورانيوم و تصميم الأسلحة النووية ، بإمكان السي آي إيه أن تصنع دولتها النووية " .

في منتصف ٢٠٠٣ عرفنا الكثير عن المواقع التي تنتج فيها شبكة خان أجهزة لتخصيب اليورانيوم لبعض عملائها وكنا ندرس اتخاذ إجراء ضدّها . إلا أنّ القيام بذلك ربما يحدث انتكاسة مؤقتة لمخطط خان ، لكنّه لن يمنعه من الظهور فجأة في مكان آخر. لذلك قدمنا حلاً جريئاً يشتمل على سلسلة من المقاربات المنسقة بعناية تجاه الشبكة. أثبت ما كشفناه أن خان وشركاءه كانوا يبيعون برامج عمل تفصيلية لأجهزة طرد مركزي لتخصيب اليورانيوم ، بالإضافة إلى التصاميم النووية المسروقة من الحكومة الباكستانية . كما باعت الشبكة سداسي فلوريد اليورانيوم ، الغاز الذي يمكن تحويله في عملية الطرد المركزي إلى يورانيوم مخصب للقنابل النووية . قدم خان و شركاؤه لإيران و ليبيا و كوريا الشمالية تصاميم لأجهزة طرد مركزي باكستانية قديمة ونماذج أحدث و أكثر كفاءة . كما وفرت الشبكة لتلك البلدان مكوّنات لأجهزة الطرد المركزي ، و أجهزة كاملة في بعض الأحيان. استخدم خان و شركاؤه مصنعاً في ماليزيا لصنع الأجهزة الرئيسية . وتحصلوا على قطع الأجهزة الأخرى من ناشطي الشبكة المقيمين فى أوروبا والشرق الأوسط وإفريقيا . و كان نائب خان – رجلاً يدعى ب . س . أ . طاهر – يدير شركة حواسيب في دبي استخدمها كشركة واجهة لشبكة خان ، وعمل كمديرمالى وغاسل أموال للشبكة .

كانت لدينا المعلومات عن عبدالقدير خان وجماعته ووصلنا إلى مرحلة تحتّم علينا التحرك ، لكن لاتزال هناك بعض المسائل المهمة التي يجب حلّها . و لم يتضح إلى أي حدّ كانت الحكومة الباكستانية تعرف عن معاملات خان وتدعمها . وكانت مهمتنا أن نكتشف ذلك. بذل الرئيس الباكستاني مشرف جُهداً كبيراً في أعقاب الحادى عشر من سبتمبر و ساعدنا بشكل بطولى في قتال القاعدة وطالبان . و أنا الآن أوشك أن أطلب منه أن يتصدّى لرجل حوّل باكستان بمفرده تقريباً ، إلى قوة نووية و ينظر إليه على أنّه بطل قومي في بلده. لا يمكنك أن تقدم مثل هذه الطلبات على الهاتف ، و لا أن تقدمها حتماً أمام مجموعة كبيرة من الأشخاص . تبيّن أن مشرف قادم إلى مدينة نيويورك لحضور الجمعية العامة للأمم المتحدة ، فطلبت اجتماعاً معه على انفراد في ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٣. اجتمعنا في جناحه في الفندق . وكان كما نطلق عليه في الاستخبارات اجتماع " أربع عيون " – نحن الاثنان فقط بدون مستشارين ومدوّنين للملاحظات .

بدأت بشكره على مساندته الشجاعة للحرب على الإرهاب و أبلغته أنّني سأنقل إليه الآن أخباراً سيّئة قلت : " عبد القدير خان يخون بلده . لقد سرق بعضاً من أكثر أسرار بلده حساسية و باعها إلى من يدفع أعلى الأسعار " . وتابعت قائلاً : " سرق خان أسرار الأسلحة النووية . ونحن نعرف ذلك لأننا سرقناها منه " .

أخرجت من حقيبتي بعض الخطط التفصيلية و رسوماً لتصاميم نووية سرقت من الحكومة الباكستانية . لست عالماً نووياً ، و لا الرئيس مشرف ، لكن أطلعني فريقي بشكل جيد بحيث يمكنني أن أشير إلى علامات على الرسوم تثبت أن التصاميم يفترض أن تكون في خزنة حديدية في إسلام أباد لا في فندق في نيويورك . و أخرجت برنامج عمل تفصيلي لتصميم جهاز الطرد المركزي P1 " لقد باع ذلك إلى إيران " . ثم أخرجت تصميماً للجيل الثاني من أجهزة الطرد المركزي P2 " باع هذا إلى عدة بلدان " . ووضعت بدون توقف مستنداً آخر أمام الرئيس

مشرف . " هذه هي رسوم مصنع معالجة اليورانيوم التي باعها إلى ليبيا " . لم يكن هناك أي شك في حجم المشكلة و نطاقها . على الرغم من أنّ الرئيس مشرف اعترف لاحقاً بأن تلك اللحظات كانت الأكثر حرجاً في رئاسته ، فإنه لم يظهر أمامي أي انفعالات . و طالما وجدت أنّه شخص بارد يبدو أنّه يتقبل أي كلمة تقولها له .

أبلغته بأنّني أعرف أنّه حاول منذ مارس ٢٠٠١ م حظر سفر عبد القدير خان خارج حدود البلاد . ثم أعطيته قائمة مفصّلة عن عشرات الرحلات الخارجية التي قام بها خان على الرغم من الحظر. بل إنّ خان كان يقوم برحلة مبيعات دولية فيما نحن نتحدّث معاً .

قلت : " سيدي الرئيس ، إذا حصل بلد مثل ليبيا أو إيران ، لا سمح الله ، أو منظمة القاعدة ، على جهاز نووي يعمل ، وعلم العالم أنّه جاء من بلدك، فإنّني أخشى من أن تكون النتائج مدمّرة " . اقترحت بعض الخطوات التي يمكننا القيام بها معاً لمعرفة مقدار فساد خان ووضع حدّ حاسم لذلك . طرح الرئيس مشرف بعض الأسئلة ثم قال ببساطة : " شكراً لك يا جورج ، سأهتم بهذا الأمر " . لم يمض وقت طويل على عودة الرئيس مشرف إلى باكستان ، حتى نجا من محاولتي اغتيال بتدبير من القاعدة . في ديسمبر تسرّبت أنباء عن تحقيق كبير يجري فيما يتعلق بأنشطة مختبر خان للأبحاث . وفي ٢٥ يناير ٢٠٠٤ ، أعلن المحقّقون الباكستانيون أنّ خان قدّم مساعدة فنية غير مُجازة إلى برنامج إيران النووي مقابل عشرات الملايين من الدولارات. وبعد ستة أيام ، أُقيل خان من منصبه " كمستشار علمي " لمشرف للسماح بإتمام التحقيق. ثم في أوائل فبراير ، أعلنت الحكومة الباكستانية أنّ خان وقّع على اعتراف يقّر بمساعدة إيران وليبيا و كوريا الشمالية بتقديم تصاميم و أجهزة لبرامج أسلحتها النووية .

ظهر خان على التلفزيون القومي في باكستان في ٤ فبراير و أدلى بكلمة استغرقت ثلاث دقائق بالإنجليزية . قال : " إنّني أتحمل المسؤولية الكاملة عن أفعالي و أطلب منكم العفو " . وعبّر

عن عميق الإحساس بالأسف و الألم والندم قائلاً إن أفعاله تمّت عن " نية حسنة " لكنها كانت ناتجة عن " أخطاء في التقدير " ، وصور أفعاله بأنها صادرة منه بالكامل وليس هناك أي تفويض من الحكومة للقيام بهذه النشاطات . في اليوم التالي عفا عنه مشرف لكنّه وضعه تحت الإقامة الجبرية الدائمة. كنّا نفضل أن يقدّم خان للمحاكمة ، ونريد أن يقوم محققون أمريكيون و من الوكالة الدولية للطاقة الذرية باستجوابه بشكل موسّع عن تعاملاته ، مع ذلك فإنّ النتيجة تعتبر انتصاراً كبيراً. حلت شبكات غامضة محل الدول القومية فى عالم الانتشار النووي الجديد، مثل شبكة خان القادرة على بيع برامج أسلحة نووية جاهزة لمن يدفع أعلى الأسعار. وتقدّم شبكات من المصرفيين و المحامين والعلماء والصناعيين مركز خدمة شامل لمن يرغب في الحصول على تصاميم ومواد تلقيم وقدرات صناعية ضرورية لإنتاج الأسلحة النووية. وبمساعدة خان ، تستطيع البلدان الصغيرة و المتخلّفة اختصار الكثير من الوقت الذي يلزمها لصنع أسلحة نووية .

تعقّبت مجموعة صغيرة من ضباط استخباراتنا ، العاملين عن قُرب مع حلفائنا البريطانيين ، بصبر شبكة خان ما يقارب العشر سنوات . وقد حققوا نجاحاً باهراً . في اليوم السابق على آخر أيامي كمدير للاستخبارات المركزية ، توجّهت إلى المكتب الصغير وقدمت ميداليات إلى الضابط الذي قاد هذا المجهود و إلى الفريق بأكمله . مالا نعرفه هو عدد الشبكات المماثلة لشبكة خان – التي تعمل دون أن تكتشف – وتقدم النصح والتجهيزات القاتلة على كل من يمتلك المال لدفعه لها . وفي السوق الحالية ، يمكنك أن تصبح قوة نووية إذا كنت تمتلك مئة مليون دولار . إقترنت شبكة خان عن قرب بنجاح استخباراتي كبير آخر ، فمن خلال عمل الاستخبارات الأمريكية والبريطانية ، تخلّت ليبيا ، وهي بلد منبوذ منذ مدة طويلة ، عن برامج أسلحة الدمار الشامل لديها دون إطلاق طلقة واحدة .

كانت السي آي إيه تعقد اجتماعات سرية مع مسؤولين ليبين كبار منذ عام ١٩٩٩ . وقد وُجهت جهودنا لمحاولة حل القضايا المتعلقة بالإرهاب و معرفة ما أمكن من الليبيين عن الجماعات الإرهابية الإسلامية المختلفة . عقدت هذه الاجتماعات التي جرت مع زملائنا البريطانيين في عدة مدن أوروبية. كان يقود الوفد الليبي رئيس المخابرات لدى العقيد معمر القذافي ، موسى كوسا ، الحاصل على شهادة ماجستير من جامعة ولاية متشغن في سنة ١٩٧٨. ولعل ما يوضح العالم السيريالي الذي يجب علينا أن نعمل فيه ، أن ضباط السي آي إيه وجدوا أنفسهم يتبادلون المجاملات مع رجل تعتبره بعض الروايات العقل المدبّر وراء تفجير رحلة بانام ١٠٣ في ديسمبر ١٩٨٨م التي أودت بحياة ٢٧٠ شخصاً.

استمرت هذه الاتصالات عدة سنوات ، إلى أن إتهمت المحكمة الاسكتلندية أحد ضابطي المخابرات الليبية بالتآمر في تفجير الطائرة و برّأت الآخر . كان تعاون ليبيا مع المحكمة الاسكتلندية ، بالإضافة إلى أفعال أخرى ، علامات – خافتة باعتراف الجميع – على أنّ ليبيا ربما تبحث عن مخرج من مأزق الإرهاب الذي علقت فيه منذ أكثر من عشرين عاماً .

و في أعقاب هجمات الحادى عشر من سبتمبر ، أدان العقيد القذافي علناً الأعمال الإرهابية ، ووصفها بأنّها " رهيبة " ، و أعلن أنّ الشعب الليبي مستعد لإرسال مساعدات إنسانية إلى أمريكا . وكانت تلك إشارة مثيرة للاهتمام. تبادلنا بعض بيانات تتبع الإرهاب مع ليبيا في أعقاب الحادى عشر من سبتمبر ، لكن محور اهتمامنا كان ملاحقة القاعدة في أفغانستان ، لذا توقفت اتصالاتنا مدة من الزمن. وفي مارس ٢٠٠٣ ، فاتح مبعوث للعقيد القذافي مسؤولين بريطانيين بصورة غير رسمية . قال إن القذافي يفكر في التخلّي عن برامجه لأسلحة الدمار الشامل وسأل إذا كان الغرب مستعداً لرفع العقوبات عن ليبيا إذا فعلت ذلك .

سافر مسؤول كبير في الاستخبارات البريطانية إلى الولايات المتحدة فى الوقت الذى بدأت فيه الحرب في العراق. اجتمعت به في اليوم التالي . وبعد خمسة أيام ، انضممت إلى الرئيس بوش و رئيس الوزراء البريطاني بلير في كامب ديفيد ، كان بصحبة بلير نظيري السير ريتشارد ديرلوف ، وهو أحد أمهر و أقدر ضباط الإستخبارات الذين عملت معهم ، وكان يحظى بمصداقية فورية لدى الزعماء السياسيين على جانبي الأطلسي ، نظراً لعمق فكره وفصاحته .

على الرغم من أنّنا استنفدنا معظم الوقت في الحديث عن العراق ، إلا أنّنا بحثنا أيضاً مبادرة القذافي المفاجئة . ها نحن بعد أيام فقط على بدء غزو العراق الذي حفزته جزئياً على الأقل ، مخاوفنا بشأن برامج صدام النووية والبيولوجية والكيمائية ، وفجأة تريد دولة مارقة أخرى التحدث عن احتمال التخلي عن برامجها . تناقشنا بشأن دوافع القذافي . بدا لنا أنّ الليبيين أدركوا أنّهم لم يحقّقوا شيئاً من محاولاتهم المكلفة جداً للحصول على أسلحة الدمار الشامل. وكانوا يكافحون لإيجاد مكان لهم في العالم – فليبيا هي الرجل الغريب في العالمين العربي والأفريقي . ولا يمكنك أيضاً التقليل من شأن الأثر الذي يحدثه تصويب الفكر على 150,000 جندياً أمريكياً يتمركزون حول العراق.

مهما كان الزخم فلا شك أن ذلك يشكل فرصة لا يمكن أن نتجاهلها دون اكتراث. وقد عدت من كامب ديفيد واستدعيت إلى مكتبي جيم بايت وستيف كابس،وهما أعلى ضابطين في جهازنا السري و أطلعتهما على الفرصة الملائمة التي لدينا مع ليبيا و أبلغتهما بوجوب التعامل معها على مستوى عالٍ وبأقصى درجات الحذر . و كنت أنا وبايت مشغولين في عملية حرية العراق ، لكننا وجدنا المرشح المثالي في كابس، كما وجدنا أن ستيف هو أحد أكثر الضباط اقتداراً للقيام بهذه المهمة وقد كنت محظوظاً بمعرفتهما . و هو يتقن الروسية والفارسية وأشرف على أصعب المهمات التي نفذتها الوكالة. وضعت المشروع بين يديه وعدت إلى الإهتمام بالعراق. كُلف

كابس و نظيره البريطاني بالمهمة كل عن جهازه، فحددا موعداً مع الليبيين للتأكد مما إذا كانوا جادّين حقاً بشأن التخلّي عن برامج أسلحة الدمار الشامل لديهم. سافر كابس ونظيره البريطاني إلى مدينة أوروبية في منتصف أبريل . كانت الخطة تقضي في البداية بأن يقابلا رئيس المخبارات الليبية موسى كوسا والدبلوماسي الليبي فؤاد سلتني في الفندق الذي يقيمان فيه على مائدة الإفطار. اختار ستيف و زميله طاولة تتيح لهما رؤية المطعم بأكمله. وقبل حلول وقت الموعد بقليل. دخل شابان من أصول شرق أوسطية . لاحظ كابس أنّه يظهر عليهما ملامح المهنيين الأمنيين . وبعد لحظات ، دخل إيهود باراك ، رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق المطعم . من الواضح أنّ الجو لم يعد ملائماً لإجراء مناقشات حساسة. بينما واصل كابس مراقبة الإسرائليين، اعترض البريطاني الليبيين و أخذهما إلى غرفة اجتماعات في الطابق العلوي في الفندق. و سرعان ما انضم كابس إليهم .

بعدما جلسنا بدأ موسى كوسا ، وهو رجل طويل حسن الهندام ، حديثاً طويلاً معلباً عن موقف ليبيا . وكنّا قد قررنا ألا نعطي الليبيين أي مادة خطية من الولايات المتحدة في الاجتماع الأول ، لكن كابس نقل رغبة الرئيس في أن تتخذ ليبيا الخطوات اللازمة للعودة إلى " الأسرة الدولية " . استغرق ذلك الاجتماع أكثر من ساعتين. وبعد شئ من النقاش، اعترف موسى كوسا بأنّ بلده انتهك كل معاهدة دولية وقّع عليها للحد من الأسلحة. ثم قال إنّهم يريدون التخلّي عن برامج الأسلحة لديهم ، و أن علينا أن نثق بهم ، وطلب بادرة حُسن النية من جانبنا .

أمنّ ستيف و زميله البريطاني على مبدأ " الثقة و لكن الإثبات " الذي شهره الرئيس ريغان وقالا إنّ بلديهما لن يقدّما إشارات حُسن النوايا إلى أن يصل خبراء على الأرض في ليبيا و يتحقّقوا من مدى اتساع النشاط الليبى ، و يطمئنوا إلى أن البرامج قيد التفكيك.

عندما عاد ستيف من الرحلة ، أخذته إلى المكتب البيضاوى "مكتب الرئيس "في البيت الأبيض ذات صباح لإطلاع الرئيس على ما تبيّن لنا . على الرغم من عدم الوصول إلى شئ ملموس ، فقد كنّا نتوقّع حدوث اختراق حقيقي. وبدأنا نحن والبريطانيون نجمع فرقاً من خبراء أسلحة الدمار الشامل الذين قد يتوجّهون إلى ليبيا للكشف عن برامجها. لكن الليبيين بدأوا يتماطلون . ويبدو أنّهم غير جاهزين بعد لكي يأتي أجانب ويُفتِّشوا برامج أسلحتهم . سافرت إلى لندن في منتصف مايو للاجتماع بنظرائي البريطانيين. و كان من بين موضوعات البحث كيف نسرّع العملية . في وقت لاحق في ذلك الشهر، دعا كابس و ضابط بريطاني كبير الليبيين إلى اجتماع في إحدى العواصم الأوروبية . وقد حضر الاجتماع ابن القذافي سيف الإسلام إلى جانب موسى كوسا . بدأ سيف يلعب دور المفاوض المتشدّد ، فأبلغ ستيف و زميله البريطاني بما يتوقّعه الليبيون منهما قبل أن يحدث أي شئ من جهتهم . سمح ستيف و البريطاني لنجل العقيد بمتابعة حديثه ثم قاطعاه . قال ستيف : " عليكم أن تدركوا أنّه لن يحدث شئ من ذلك . لن نقدّم أي تنازلات إلى أن يصل رجالنا على الأرض ويؤكدوا أنّ كل ما تقولونه لنا عن مخزوناتكم و نواياكم صحيح . رجاء عُد وأبلغ والدك بذلك " .

مرّت عدة أشهر دون إحراز أي تقدّم في الجانب الليبي. و عقد اجتماع آخر في أغسطس ، هذه المرة بدون نجل القذافي. فقد دعا موسى كوسا ستيف و زميله البريطاني إلى المجئ إلى ليبيا و الاجتماع بالقذافي نفسه. و قد أَوْعَزَ إلينا الرئيس بوش بعدم تقديم أي وعود حتى نرى برهاناً قوياً على النوايا الليبية و دليلاً على أن قرارهم لا رجعة فيه. توجّه ستيف و زميله البريطاني إلى طرابلس في أوائل سبتمبر. و كما هو معهود في الشرق الأوسط ، أرجئ الاجتماع الموعود عدة مرات فيما انتظرا فى الفندق على طرف البحر الأبيض المتوسط . وقد نبّههما موسى كوسا إلى أن الدقائق الأولى من الاجتماع مع القذافي ربما تكون " قاسية قليلاً " . أخيراً في وقت مبكر من الليل

استُدعيا . قادهم موسى كوسا بنفسه إلى مكتب القذافي. وفي الطريق وجد الوقت ليقول لهما إنّ المكان هو الموقع نفسه الذي قصفه الأمريكيون في سنة ١٩٨٦ م ، و قُتلت فيه إحدى بنات القذافي بالتبنّي كما زُعِم .

أُرشدا إلى مكتب القذافي الواسع. كانت هناك خريطة كروية كبيرة على جانبي مكتب كبير يعلوه حاسوب شخصي حديث. (علم ستيف أنّ القذافي يمضي ساعات في تصفّح الويب ، لمتابعة التطوّرات الجارية في العالم الخارجي). كان الزعيم ينتعل شبشباً إيطالياً ثميناً و يرتدي قميصاً زاهي الألوان تزينه خريطة لأفريقيا، و بعد مقدّمات موجزة، جلس الزائران و أطرق موسى كوسا رأسه كما لو أنّه يعرف ما سيلي ، و أخرج المترجم مفكرته. و شرع القذافي على الفور في خُطبة لاذعة وانتقد بشدة الغرب ، والولايات المتحدة على وجه الخصوص ، على كل جريمة يمكن تصوّرها . وقد وجد المترجم صعوبة كبيرة في متابعة الكلمات العربية فيما كانت تتطاير من فم القذافي .

وبعد مرور سبع عشرة دقيقة تقريباً من الخطبة العصماء ، رفع موسى كوسا رأسه كما لو أنّه عرف أن الكلام يوشك أن ينتهي، وفعلاً فقد استنفد القذافي طاقته، فتوقّف ليأخذ نفساً للمرّة الأولى و ابتسم ، ثم قال : " يسعدني رؤيتكما ، وشكراً على قدومكما " ، و بعد ذلك دخل في صلب الموضوع . حيث كرر قول : " نريد تنظيم الملف " ، وكل شئ موضوع على الطاولة . و في إحدى المرات ذُكرت برامج أسلحة الدمار الشامل الليبية ، فاسترسل القذافي الذي ادّعى أن ليس لديه برامج أسلحة دمار شامل. و جرت بعد ذلك مناقشة " أسلحة الدمار الشامل " وما تعنيه بالضبط ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى موضوع آخر، حيث ذكر أحدهما أنّ الولايات المتحدة و بريطانيا تريدان إجراء عمليات تفتيش لمنشآت الأسلحة الليبية. غضب القذافي ثانية ، لكن اتضح في النهاية أنّنا لو أسمينا الأمر " زيارات " بدلاً من عمليات تفتيش فلن تعود هناك مشكلة كبيرة.

استمرّ الاجتماع نحو ساعتين ونصف الساعة، وانتهى بدون أي نتيجة سوى قول القذافي : " سووا الأمور مع موسى كوسا " . وعند خروج الزائرين من المكتب ، أُبلغا بأنّ نجل القذافي سيف ، الذي لم يكن حاضراً في مكتب والده ، يريد الاجتماع بهما على الفور. انتقلا بالسيارة إلى منزل سيف على شاطئ البحر ، حيث بدا أنّ العاملين أخرجوا أثاث غرفة الجلوس ووضعوه في الخارج على رمل البحر المتوسط . كان الوقت عندئذ يقارب منتصف الليل ، فتناولا عشاءً متأخراً جداً و أطلعا نجل الزعيم الليبي على الوضع . عندما عاد كابس إلى الولايات المتحدة، اصطحبته لإطلاع الرئيس مرة أخرى. علمت أن ستيف غير مفرط الحماسة للوضع و لا فاتر الحماسة . فقد قدّم للرئيس تقييمه بأنّ لدى الليبيين العديد من الأسباب التي تدعوهم إلى الرغبة في التوصّل إلى اتفاق الآن . و أوضح أنّ خوفهم من الإسلاميين المتطرفين أكبر من خوفنا منهم . و إذا ما وجدوا طريقة يرضُون بها الغرب ، فإن بوسع الليبيين إرسال أنبه أبنائهم إلى الجامعات الأمريكية ، وبوسعهم اجتذاب الشركات النفطية الكبرى لمساعدتهم في تعزيز ازدهار اقتصادهم الذي ظل مستعصياً عليهم . ومع ذلك فإنّه قال إنّ السجل الليبي السابق يشير إلى أنّهم من المرجّح أن يتردّدوا قبل التوصّل إلى اتفاق .

كانت المسألة لا تزال محاطة بسرية وبصورة غير عادية. أطلعت كولن باول عما نعتزمه ، وأبلغنا ريتشارد أرميتاج وبيل بيرنز ، المسؤول الرئيسي في وزارة الخارجية عن شؤون الشرق الأوسط . فإذا نجح هذا المسعى في النهاية ، فستكون مهمتهم العمل على تطبيع العلاقات مع ليبيا.

في خريف عام ٢٠٠٣ م ، اتحد عنصرا موضوع نجاحاتنا – عبد القدير خان و ليبيا . فمن خلال عملياتنا ضدّ شبكة خان ، علمنا أنّ سفينة مسجلة في ألمانيا ، تدعى "بي بي سي تشاينا" ، تحمل قطع أجهزة طرد مركزي متوجّهة إلى ليبيا. وبعد أن عبرت قناة السويس ، عملنا على تحويل وجهة السفينة إلى ميناء تارانتو الإيطالي ، حيث وصلت إلى هناك في ٤ أكتوبر . عثر

المفتشون هناك على قطع أجهزة طرد مركزي في حاوية طولها أربعين قدماً مدرجة في جدول شحنة السفينة بأنّها " قطع آلات مستعملة " . كنا مسرورين لأنّنا اعترضنا الشحنة ، لكنّنا لم نكن نرغب فى إظهار كبير اهتمام بهذا الأمر فى ذلك الوقت ، على أمل أن نتمكّن من استخدام الواقعة لنرسل إلى الليبيين رسالة مفادها أنّنا نعرف كل شئ عن خططهم ونعطيهم حافزاً أكبر للتخلي عن كل أسلحة الدمار الشامل لديهم .

أوفد البريطانيون ضابطاً كبيراً إلى ليبيا لإبلاغ القذافي قبل أن يصل نبأ ضبط الشحنة إلى الصحافة . وقد زعم الليبيون أن الشحنة كانت مرتّبة قبل أن تبدأ المفاوضات السرية الحالية . و أنّ الأشخاص المسؤولين عن مراقبتها لم يعلموا بأمر القرار الوشيك للتخلّي عن أسلحة الدمار الشامل. كان القليل من المسؤولين الحكوميين الأمريكيين يعرفون عن " القناة الخلفية " للمفاوضات مع الليبيين. وكان بعض الأشخاص البارزين الذين لا يعلمون بأمر المحادثات السرية يريدون إشاعة خبر ضبط الشحنة. وعلمنا أن وكيل وزارة الخارجية للحد من الأسلحة ، جون بولتون ، يعتزم عقد مؤتمر صحافي لذكر الحادثة كنجاح كبير " للمبادرة الأمنية لمكافحة الانتشار " ، وهو برنامج أعلن عنه الرئيس قبل سنتين لتعزيز التعاون الدولي في الحدّ من شحنات الأسلحة غير القانونية . والحقيقة أن الإمساك بسفينة بي بي سي تشاينا لا علاقة له البتة بالبرنامج ، و كنا نخشى من احتمال أن يلغي القذافي الاتفاق بأكمله بسبب الإحراج إذا أطلق المسؤولون الأمريكيون لغة الهجوم المعهودة و المستحقة على ليبيا . اتصلنا بريتشارد أرميتاج ، و هو من القلائل في وزارة الخارجية المطلعين على الجهود المستمرة التى نبذلها ، و طلبنا منه الإيعاز إلى بولتون بالتنحي جانباً . جاء الإيعاز غامضاً بالنسبة إلى بولتون و أدى إلى اتصاله بكابس و توبيخه على عدم التوجّه إليه مباشرة .

بعد أن منحنا الليبيون في النهاية الموافقة على زيارة فرق التفتيش ، توجّهت مجموعة من خبراء الأسلحة في السي آي إيه من الولايات المتحدة إلى المملكة المتحدة لاصطحاب نظرائهم البريطانيين . وفي ١٩ أكتوبر سافروا إلى ليبيا بطائرة لا تحمل اسماً. فمنظر طائرة تحمل اسم "الولايات المتحدة الأمريكية " شئ لم يكن الليبيون ولا نحن مستعدين لشرحه . وقبيل الهبوط مباشرة ، أبلغ الطاقم كابس أنّ طرابلس ترفض منحهم الإذن بالهبوط . لم يعلم أحد إذا كان ذلك إجراءات بيروقراطية أم أنّ الليبيين تردّدوا مرة أخرى ، لذا أبلغ ستيف طاقم الطائرة أن يطلبوا من برج المراقبة الاتصال بموسى كوسا إذا كان لديهم أي سؤال عن وصولهم . وخلال دقائق منح إذن الهبوط . ظن ستيف أن تكتم الليبيين على وصول الفريق أمر جيد ، و لكن عندما تحركت الطائرة بإتجاه صالة الوصول ، نظر ستيف من نافذة الطائرة و شاهد فرقة مصطفة تتخذ موقعها . تبيّن فيما بعد أن لا داعي للقلق – فالفرقة موجودة لتقديم التحية لزائر آخر من كبار الشخصيات – وتوقّفت طائرة السي آي إيه في موقع بعيد .

كانت المبادرة الليبية سراً كبيراً في بلد القذافي ، مثلما أبقيناها سراً في الولايات المتحدة . تم اصطحاب كابس و نظيره البريطاني و فريقيهما إلى مجمع احتشد فيه جمع كبير من المسؤولين المحليين . و كان بوسع كابس أن يعرف أن ليس لدى الليبيين أي توجيه عما يقولونه للزوار . بدا عليهم الخوف و ربما اعتقدوا أنّ الإجراء بأكمله اختبار للولاء للقائد العظيم لمعرفة من منهم الأقدر على التكتّم . وأخيراً ، توصّل الليبيون ببطء ، على مدى عدة أيام ، إلى أن من المفترض عليهم كشف ما يعرفونه و أنّ ذلك ليس ضرباً من ضروب الخداع .

ففي ٢١ أكتوبر ، بعد مضي يومين من التقدّم المحدود ، طلب القذافي الاجتماع بكابس بمفرده . و في المكتب الكبير ، عاود القذافي إطلاق انتقاده المعهود . و بعد مدة من الوقت توقف و سأل إن كانت الولايات المتحدة ستفي بالتزاماتها حقاً إذا تخلّى عن برامج أسلحة الدمار الشامل .

أجاب كابس :" نعم ، الرئيس رجل يلتزم بوعوده . لكن إذا شعر بالاستخفاف بوعده ... فإنّه ذو طابع حادّ جداً " . وواصل القذافي تكرار أنه يريد " تنظيف الملف ، تنظيف الملف " . بعد بضعة أيام ، تباطأت الأمور ثانية . لذا لجأ ستيف و زميله البريطاني إلى طريقة " حزم الحقائب " التى ثبتت جدواها بالتجربة العملية، فأمر المفتشين عن الأسلحة بحزم أمتعتهم و اتصلا بالطائرة للمجئ ونقلهم . فصاح موسى كوسا قائلاً : " إنكم متعبون جداً " ، لكّنه أمر بمزيد من الانفتاح و أُفرغت الحقائب. كان التقدم المحرز بطيئاً ، حيث كان الليبيون يعرضون على المفتشين الأمريكيين و البريطانيين الشوط المقطوع في برامج الأسلحة المختلفة . وفي العديد من الحالات ، حاول الليبيون إخفاء أجزاء من برامجهم ، دون أن يدور في خلدهم مقدار ما نعرفه بالفعل . فقد أرونا صواريخ سكود بي التي لديهم ، فقلنا : " حسناً ، أين توجد صواريخ سكود سي " ؟

عندما أطلع مفتشونا على منشآت تخزين للمواد الكيميائية الشديدة السمية ، أصيبوا بالذهول . لم تكن المفاجأة أن الليبيين يمتلكون المواد الكيميائية المميتة ، ولكن لأنّها مخزنة في جرار بلاستيكية كبيرة ولأنّ إجراء السلامة الوحيد الذي يتبعه الليبيون هو سدّ أنوفهم عند دخول المنشأة . تراجع الأمريكيون بسرعة وارتدوا سترات واقية من المواد الكيميائية تغطي الجسم بأكمله قبل أن يعاودوا دخول المخزن .

استغرقت عملية جرد البرامج المختلفة عدة أشهر . غير أن الليبيين كانوا أكثر تشدّداً في عدم التعاون في المجال النووي . و لم يكن لديهم أي فكرة عن مقدار ما نعرفه عن برنامجهم بالفعل . في أواخر نوفمبر ٢٠٠٣ م ، دعا ستيف و نظيره البريطاني موسى كوسا إلى اجتماع . قالا له : " نعرف أنكم اشتريتم مرفقاً لأجهزة الطرد المركزي " . و عندئذٍ أدرك الليبيون أنّه لا مجال للتراجع . فبعد أن بدأوا بإبلاغنا عن برامجهم ، لم يعد أمامهم سوى إكمال المسعى نظراً لما نعرفه بالفعل .

في الواقع ، كنا نعرف عملياً كل ما يجب أن نعرفه عن برنامجهم بسبب عملياتنا ضد شبكة خان . وكان الأمر شبيهاً بلُعبة ،البوكر، ذات مخاطرة عالية و أنت تعرف أوراق خصمك . وفي هذه الحالة كانت المخاطر التفكيك التام والسلمي لمشروع الأسلحة النووية الذي كان سيمنح العقيد قدرة الأسلحة النووية في نهاية المطاف .

في بعض الأحيان كنّا نعرف أكثر مما يعرفه الليبيون أنفسهم . و في إحدى المراحل قلنا لهم : " نعرف أنكم دفعتم مئة مليون دولار للحصول على كل هذه الأشياء من عبد القدير خان " . فساد صمت محيّر لدى الجانب الآخر : " مئة مليون دولار ؟ ظننا أنّ السعر مئتا مليون دولار ! " . يبدو أنّ أحدهم حقق ربحاً هائلاً .

في منتصف ديسمبر ، كنا قد أحرزنا ما يكفي من التقدّم بحيث يتم الإعلان عن الاتفاق . خضع ذلك لتنسيق مدروس ؛ يقوم القذافي أولاً بالإعلان أمام شعبه أنّه قرّر التخلي عن برامج أسلحة الدمار الشامل . وبعد ذلك يدلي رئيس الوزراء البريطاني بتعليقات علنية يرحب بها بتلك الأخبار ، تليها ملاحظات من الرئيس بوش . تم تحديد الموعد في ١٩ ديسمبر . ثم في اللحظة الأخيرة جاء خبر من ليبيا بأن العقيد يريد تأخير الموعد . ظننا أنّه يريد سحب البساط من تحت الاتفاق . لكن تبين أن التفسير بسيط . كان المنتخب الليبي لكرة القدم سيلعب مباراة تنقل على التلفزيون مباشرةً في تلك الليلة ، ولم يشأ القذافي إزعاج الجمهور بقطع تغطية مباراة مهمة للإعلان عن شئ لا يهم معظم الليبيين ، أسلحة الدمار الشامل .

الفصل السادس عشر

سبب الحـــــرب

صارت حتمية وقوع الحرب فى العراق كاللغز الكبير بالنسبة لى. ففي الفترة التي أعقبت الحادى عشر من سبتمبر ، كما في الأشهر التي سبقته ، كنت مشغولاً في الحرب على الإرهاب فقط . ولم تكن ليالي الأرق في ذلك الوقت تتركّز على صدام حسين . فقد كانت القاعدة تشغل كل كوابيسي – لا إذا كانوا سيضربون ثانية و إنّما كيف. أجهدت ذهني بالتفكير فيما يمكن أن نفعله لتأخير أو إحباط أو – بإذن الله – منع شن أي هجوم . وبالعودة إلى الوراء ، ليتني كنت أستطيع أن أخصص قدراً مساوياً من الطاقة والاهتمام بالعراق . فقد كان العراق يستحق المزيد من وقتي بالنظر إلى الأخطاء التي ارتُكبت فيما بعد . لكن الواقع أنني لم أرّ قطار الشحن قادماً باكراً كما كان يجدر بي . الأمر لا يتعلق بعدم وجود همهمات عن ذلك منذ بداية إدارة بوش. فكثير من المسؤولين الكبار القادمين كانوا منخرطين بشكل كبير في العراق عندما كانوا في الحكومة آخر مرة . وقبل التنصيب بفترة قصيرة ، طلب ديك تشيني من وزير الدفاع المغادر وليام كوهين تقديم إحاطة كاملة ووافية للرئيس القادم عن العراق والخيارات المطروحة. وكان من الطبيعي والملائم بالنسبة إليّ إطلاع الرئيس على ما استمر يشكل مسألة شائكة للولايات المتحدة . كانت أطقمنا الجوية تقوم بدوريات فى منطقتي حظر الطيران في العراق معرّضة نفسها لمخاطر كبيرة. في حين كانت العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق تندثر باستمرار.

اتضح منذ البداية أيضاً أنّ نائب الرئيس يعتزم الاهتمام بصورة فعلية بأعمال السي آي إيه والمعلومات الاستخباراتية التي نصدرها. و تزعم العديد من وسائل الإعلام ، وبعض ملفات المحكمة في قضية ليبي (حيث وجد كبير موظفي نائب الرئيس مذنباً بالحنث باليمين فيما يتعلق بمسألة تسريب الأخبار عن فاليري بلام ولسون) ، بأن هناك نوعاً من الحرب بين السي آي إيه و

مكتب نائب الرئيس. إذا كان هناك من حرب فإنها حرب من جانب واحد ولم نشارك فيها. ففي ذلك الوقت ، كنت أنظر إلى نائب الرئيس على أنه داعماً كبيراً للاستخبارات ، و ساعدنا في الحصول على الموارد التي نحتاج إليها . وبحكم عمله السابق في الحكومة ، فقد كان يعرف الكثير عن عملنا ولم يكن يخجل من طرح أسئلة صعبة ، وكنت أرحب بها، فالأسئلة الصعبة يجب ألا تكون مشكلة، طالما أنّك لا تغير إجابتك لتتوافق مع ما تعتقد أن السائل يريد سماعه. ولم نفعل ذلك قطّ .

لا شك في أنّ محللينا ، الكبار والصغار ، كانوا يغضبون من الدعوات الصاخبة للاستقصاءات المتكررة عن العراق والقاعدة . وقد جاءتني جيمي ميسيك ، كبيرة محللينا ، إلى مكتبي ذات يوم في منتصف سنة ٢٠٠٢ م شاكية من أن العديد من صناع السياسة ، لاسيما سكوتر ليبي وبول ولفويتز ، لا يبدو أنهم راضون البتة عن إجاباتنا بشأن المزاعم عن تواطؤ عراقي مع القاعدة . فطلبت منها أن تبلغ محلليها بالتوقف عن الإجابة ، إذا كان الجواب لم يتغير عن المرة السابقة التي وردنا فيها السؤال ، ما عليهم سوى القول ، " إننا لا نزال على ما كتبناه سابقاً " . لكن إذا ظهر أي دليل عن وجود أي تعاون بين صدام والمنظمات الإرهابية ، فمن المهم أن يعرفوا ، مثلما من المهم أن يعرفوا إذا كان هناك ارتباط بين الإرهاب و أسلحة الدمار الشامل ، وتلك مسألة أخرى تحظى باهتمام كبير من قبل نائب الرئيس .

كان اهتمام بعض المسؤولين الكبار لدى بوش بالعراق سابق على قدوم الإدارة . فقد كان بول ولفويتز و دوغلاس فيث و ريتشارد بيرل من بين الثمانية عشرة شخصاً الذين وقعوا رسالة علنية عن مجموعة تدعى " مشروع القرن الأمريكي الجديد " تدعو إلى الإطاحة بصدام . وغالباً ما يُنسى أن تغيير النظام في العراق كان أيضاً السياسة المعلنة صراحة لإدارة كلينتون ، وهدف قانون تحرير العراق الذي أقره الكونغرس في سنة ١٩٩٨ م . وخصصت مئة مليون دولار إلى وزارة الخارجية لهدف واضح يتمثل فى السعي إلى إنهاء نظام صدام. وقد برزت هذه السياسة فى أعقاب

فشل برنامج العمل السرى لعام ١٩٩٦ م و أعلن عنها أمام العالم . و الأهم من ذلك الإعلان عن نية الحكومة الأمريكية إحداث تغيير في النظام في بغداد أمام شعب العراق الذي طالت معاناته . و ظل التعهد الأمريكي بالإطاحة بصدام القانون المعمول به في البلاد منذ أواسط ولاية كلينتون الثانية إلى أن غزت القوات الأمريكية العراق في مارس ٢٠٠٣ م .

في بداية إدارة بوش ، دعا وزير الخارجية باول على وجه الخصوص إلى مفهوم "العقوبات الذكية " ففي اجتماعات عقدت في أوائل سنة ٢٠٠١ م ، لاحظ أن الولايات المتحدة تتعرض لانتقاد شديد في محكمة الرأي العام نتيجة الانطباع الخاطئ بأنّ عقوبات الأمم المتحدة تسبب المجاعة للأطفال العراقيين . ولاستعادة صورتنا العامة ، حث باول على فرض عقوبات جديدة تركز بوضوح على المشتريات ذات الصلة بالأغراض العسكرية . ورأى مسؤولون آخرون كبار أن ذلك سيزيد من فرص صدام في التهرب من العقوبات ، وإعادة ملء خزانته واستعادة برامجه للأسلحة . وفي النهاية حصل باول على الموافقة على " العقوبات الذكية " ، لكن سرعان ما تجاوزتها مساع أخرى داخل الإدارة .

في ٧ فبراير ٢٠٠١ م ، بعد أكثر من أسبوعين بقليل من تسلم الإدارة الجديدة مهامها ، ترأست كوندي رايس اجتماعاً للجنة المديرين في البيت الأبيض تركز على العراق . وقد ناب عني في ذلك اليوم نائبي جون مكلوغلن . وعلى غرار العديد من الاجتماعات في الأيام الأولى من إدارة بوش ، بدا أنّ هذا الاجتماع يرمي إلى جمع المعلومات وتحديد المهام البيروقراطية بحيث يمكن فيما بعد صياغة السياسة العريضة للحكومة .

تراجع موضوع العراق إلى الخلف في ذلك الربيع والصيف – بالنسبة إليّ على الأقل – إذ كان هناك العديد من القضايا التي تشغل اهتمامي . فإرغام الصين طائرة البحرية إ.ب-٣ على الهبوط في أبريل ، وهي حادثة طواها النسيان الآن تقريباً ، تسبّبت في أحد عشر يوماً من الاهتمام

الشديد . كما قضيت جزءاً كبيراً من أوائل يونيو في الشرق الأوسط أحاول التوصل إلى خطة عمل لإقرار الوضع الأمني بين الإسرائيليين والفلسطينيين. غير أنه لم يتغاض عن صدام .

ففي مديرية العمليات التابعة لنا ، كان فريق عمليات العراق يعد خططاً لأي عمليات سرية ربما تطلب داخل العراق أو فى أطراف البلد . وفي أغسطس ٢٠٠١ م ، عيّنا رئيساً جديداً لفريق عمليات العراق (لا يمكنني تسميته لأنّ اسمه لا يزال خاضعاً للسرية) . وهو ضابط كوبي أمريكي فصيح و عاطفي وذكي ولبق ، وكان يقول إنّه موجود في هذا البلد نتيجة عمل سري أمريكي فاشل ، خليج الخنازير ، و أنّه لا ينوي أن يقود فشلاً آخر . وللتحقق من عدم حدوث ذلك ، أجرى مراجعة للدروس المستفادة من تاريخنا الطويل غير المفرح جداً في تنفيذ العمليات ضدّ العراق منذ نهاية حرب الخليج في سنة ١٩٩١ م . وكانت الرسالة الرئيسة المستقاة من المراجعة أنّه لا يمكن إزاحة صدام عن طريق العمل السري وحده . وبقدر ما كان بعضهم يرغب في " خداع نظيف " . حل سريع وسهل وغير مكلف لتغيير النظام في العراق فإن ذلك لن يحدث .

وخلصُ عدد من المسؤولين الحكوميين الكبار و خبراء في وسائل الإعلام في أوائل سنة ٢٠٠٢ م إلى استنتاج مفاده أنّ السي آي إيه غير راغبة في تولي مهمة صعبة للغاية . ولم يكن الحال كذلك . بل إن تحليلنا توصل إلى أنّ صداماً عميق الجذور وأنّ لديه العديد من الدوائر الأمنية المحيطة به بحيث ليس من السهل إزاحته . وكلما تحدثنا إلى العراقيين ، الوافدين أو الذين لايزالون يعيشون تحت حكم صدام ، كان ردّة الفعل دائماً " أنتم في السي آي إيه تقولون أنكم تريدون التخلص من صدام . أنتم و جيشكم ؟ إذا كنتم جادين بهذا الشأن ، فإننا نريد أن نرى الجنود الأمريكيين على الأرض " . كان نفوري الخاص من استراتيجية عمل السي آي إيه منفردة مستنداً إلى تقديرنا لفرصة النجاح (ضئيلة إلى منعدمة) واعتقادي بأنّ لدينا فائضاً بالفعل من المهام في الحرب على الإرهاب.

و ثمة سبب آخر غير معلن لعدم نجاح خيار " الحل السحري ". فحتى لو تمكنا من خلع صدام ، فإنّ من المرجح أن يكون المستفيد جنرال سنّي آخر ليس أفضل من يخْلُفه . ومثل هذه النتيجة لا تتلاءم مع نية الإدارة بأن يكون العراق الجديد منارة للديمقراطية في الشرق الأوسط .

تغيّر كل شئ في أعقاب الحادى عشر من سبتمبر . فأصبح ينظر الآن إلى العديد من قضايا السياسة الخارجية من منظور الدخان المتصاعد من مركز التجارة العالمي والبنتاغون ، و أضحى العراق لدى العديدين في إدارة بوش عملاً لم يتم إنجازه . فاستغلّوا التأثير العاطفي لهجمات الحادى عشر من سبتمبر وخلقوا علاقة نفسية بين الفشل في اتخاذ إجراء حاسم ضدّ القاعدة والخطر الذي تشكله برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق . و كانت الرسالة ليس فى وسعنا تحمل مفاجأة ثانية . وفي حالة العراق ، إذا تضاءلت العقوبات و لم تتخذ التدابير اللازمة (ولم يكن لدى المجتمع الدولي صبرٌ طويلٌ للمحافظة على العقوبات إلى ما لا نهاية) ، فقد نستيقظ ذات يوم لنجد أن صداماً يمتلك سلاحاً نووياً ، وستتخذ عندئذٍ قدرتنا على التعامل معه شكلاً مختلفاً تماماً . و المؤسف أنّ هذا التسلسل للأفكار قاد أيضاً إلى خطاب مفرط الشدة ومضلل مثل القول بأننا لا نريد " أن يكون دليلنا القاطع سحابة نووية ".

لم يُجرَ أى نقاش جاد أعرف به داخل الإدارة عن مدى قرب التهديد العراقي . (في الواقع لم يكن الأمر يتعلق بالقرب و إنّما بالعمل تجاه صدام) . ولم يجر أي نقاش مهم أيضاً يتعلق بتعزيز سياسة الاحتواء أو تكاليف مثل هذا النهج وفوائده مقابل التخطيط الكامل لتغيير النظام علناً أو سراً . وعوضاً عن ذلك ، إتضح أنّ الولايات المتحدة لم تقم بما يكفي لوقف القاعدة قبل الحادى عشر من سبتمبر ودفعت ثمناً باهظاً . وبالتالي ، كما مضى التعليل ،لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بأن نكون في موقف مماثل في العراق . وبصرف النظر عن أحداث الحادى عشر من سبتمبر ، كشف التشكيك الذي استقبل به اقتراح باول عن " العقوبات الذكية " بجلاء الانقسام بين مؤيديه ومن

يعتقد أنّنا بحاجة إلى نهج أكثر قوة للضغط على صدام . و مع ذلك لو لم تقع هجمات الحادى عشر من سبتمبر ، لوجدت حجة الذهاب إلى الحرب في العراق صعوبة أكبر بلا شك . ولست على يقين مما إذا كان يمكن تقديم حجّة أصلاً . لكن هجمات الحادى عشر من سبتمبر وقعت ، وتحولت الأرض معها .

كان لقائي الغريب بريتشارد بيرل فى الجناح الغربي فى صبيحة ١٢ سبتمبر الإشارة الأولى على ما سيلي . لم تكن تلك الحادثة الوحيدة ، فقد تحدثت مؤخراً مع مسؤول عسكري كبير صادف أنّه كان في أوروبا عند وقوع هجمات الحادى عشر من سبتمبر. بعد جهد لتأمين رحلة العودة إلى الولايات المتحدة ، تمكن من التوجه إلى القاعدة الأمريكية في" مايلدنهول" بإنجلترا ، حيث قابل مصادفة مسؤولاً كبيراً آخر عالقاً مؤقتاً ، دوغلاس فيث . وقد ركبا على متن طائرة ناقلة للبترول (تعمل على تزويد الطائرات بالوقود) تابعة لسلاح الجو ، وهي من الطائرات القليلة التي سمح لها بعبور المجال الجوي الأمريكي المغلق. في أثناء الرحلة ، أبلغ الضابط العسكري فيث بأنّ القاعدة هي المسؤولة عن هجمات اليوم السابق و أنّه يجب القيام بحملة على نطاق واسع ضدها بدءاً من أفغانستان . و مما أدهشه أنّ فيث تحدث عن أنّ الحملة يجب أن تقود إلى بغداد على الفور . وقد خالفه المسؤول العسكري الكبير بقوة . وفي أثناء الاجتماعات في كامب ديفيد في عطلة نهاية الأسبوع التي تلت الهجمات الإرهابية ، ركز بول ولفويتز على وجه الخصوص على مسألة إدخال صدام في الرد الأمريكي . وتحدث عن العراق في إطار الإرهاب فقط . ولا أذكر أي إشارة لأسلحة الدمار الشامل . استمع الرئيس إلى آراء بول ، لكن بدا لي أنه استبعدها بسرعة ، وكذلك أنا ، ولم يبدُ رامسفيلد منشغلاً بالشأن العراقي مثل نائبه ، ولم يدل بدلوه في النقاش بأي طريقة مجدية . وعندما أجرى تصويت غير رسمي على إدخال العراق في خططنا للردّ الفوري ، صوت المديرون ضده بأربعة أصوات مقابل لا شئ ، وامتنع رامسفيلد عن التصويت .

وأنا على يقين من أنّ ولفويتز كان يؤمن إيماناً حقيقياً بأن هناك صلة بين الحادى عشر من سبتمبر والعراق . و أنا على يقين أيضاً من أنّه كان يشعر شعوراً عميقاً بأنّ أول خطوة نحو تغيير وجه الشرق الأوسط نحو الأفضل تبدأ بتغيير القيادة في العراق . لكن لم يكن العراق فى قائمة أولوياتي . وفي الأسابيع التي أعقبت الحادى عشر من سبتمبر ، ضاعفنا حجم مركز مكافحة الإرهاب في السي آي إيه أربعة أضعاف ، و أجرينا تنقلات كبرى في العاملين و الأموال ، و أوقفنا العمليات و خفضناها في العديد من أنحاء العالم لدعم الهجوم الذي يشنّ على القاعدة . لم يكن ذلك لأننا نريد الإنتقام من بن لادن . الأهم من ذلك وجود إشارات واضحة لا لبس فيها بأنّ الولايات المتحدة قد تتعرض لضربة ثانية ، بل إشارات بأن الهجوم الثاني سيقزّم هجمات الحادى عشر من سبتمبر في عنفه وحجم خسائرة البشرية . ولوطلب مني أحد التوقف عن الاهتمام بالإرهاب في الأشهر التي تلت الحادى عشر من سبتمبر و البدء فى الاهتمام بالعراق بدلاً من ذلك ، لحدقت فيه غير مصدق ما أسمع .

مما لاريب فيه أنّ عدداً من الأشخاص كان يضع العراق نصب عينيه ، وأحدث عدد من القرارات و الإجراءات المتخذة في أواخر خريف ٢٠٠١ م و أوائل سنة ٢٠٠٢ م زخماً قائماً بنفسه . و أخبرني أحد كبار خبراء الشرق الأوسط في السي آي إيه مؤخراً عن اجتماع حضره في البيت الأبيض بعد بضعة أيام على الحادى عشر من سبتمبر وقد أبلغه مسؤول كبير في مجلس الأمن القومي أنّ الإدارة تريد التخلص من صدام . وقال محللنا : " إذا كنتم تريدون أن تلاحقوا ابن الكلبة لتسوية الحسابات معه ، فعلى الرحب والسعة . لكن لا تقولوا لي أنّ له صلة بهجمات الحادى عشر من سبتمبر أو بالإرهاب إذ لا يوجد أي دليل يدعم ذلك . يجب أن يكون لديكم سبب أفضل " . تزايدت وتيرة الاجتماعات التي يعقدها موظفو مجلس الأمن القومي في غرفة العمليات في البيت الأبيض لبحث موضوع العراق . و سُميت العديد من الاجتماعات اجتماعات لجنة النواب ،

ويحضرها عادة الصف الثاني في قيادة مختلف الهيئات وكانت اجتماعات أخرى تضم لجنة المديرين . وعلى الرغم من أنّني حضرت بعض اجتماعات لجنة المديرين ، فإنني غالباً ما كنت أعهد بالمهمة إلى نائبي جون مكلوغلن . وكانت اجتماعات لجنة النواب تشكل عبئاً عليه أصلاً .

بعد فترة وجيزة بدأ موظفو مجلس الأمن القومي باستضافة سلسلة أخرى من الاجتماعات تضم ممثلين عن وزراتي الخارجية والدفاع و رؤساء هيئة الأركان المشتركة ومكتب نائب الرئيس و الخزانة والسي آي إيه بالإضافة إلى مجلس الأمن القومي . لم يكن لهذه الاجتماعات تسمية رسمية لكّنها كانت تسمي بصورة غير رسمية اجتماعات " المجموعة الصغيرة " . كانت هذه الاجتماعات تُعقد عادة مرتين في الأسبوع على الغداء ، وكانت غير مجدية بشكل محبط من وجهة نظر من يحضرونها . وبعد فترة ، بدأ مكلوغلن يُحضر معه محللين كباراً وضباط عمليات من السي آي إيه ليجلسوا في المقعد الخلفي . وبعد ذلك أقلع عن الحضور و طلب ممن يليه التقدم إلى المقعد الأمامي .

عند الحديث الآن مع من كانوا يحضرون الاجتماعات ، أخبرت بأنّ تلك الجلسات كانت تبدو غريبة إذا عدنا إلى الوراء ، و كانت تُلمح دائماً إلى قرار رئاسي بالذهاب إلى الحرب في مجلس الأمن القومي بعبارات افتراضية، كما لو أنه لا يزال معلقاً والمجتمعون يبحثون في الحالات الطارئة . وفي بعض الأحيان كانت تدور مناقشات طويلة بشأن تفاصيل غامضة مثل كم من الوقت يلزم بعد بدء الحرب لاستبدال العملة العراقية ، وما الصورة التي يجب وضعها على الدينار؛ كانت العملة تحمل صورة صدام. ولم يستطع أحد أن يتذكر مناقشة أية مسألة مركزية في أي من تلك الاجتماعات. هل من الحكمة الذهاب إلى الحرب ؟ هل هي العمل الصواب الذي نقوم به ؟ كان جدول الأعمال يتركز فقط على الإجراءات التي يجب اتخاذها إذا اتخذ قرار الهجوم لاحقاً . وما لم يحدث قطّ ، على حد علمي ، هو الدراسة الجادة لعواقب الغزو الأمريكي . ما التأثير الذي يحدثه

وجود قوة احتلال أمريكية كبيرة في بلد عربي يقع في قلب الشرق الأوسط ؟ ما نوع الاستراتيجية السياسية اللازمة لدفع المجتمع العراقي إلى الإندماج في عالم ما بعد صدام و زيادة فرص نجاحنا ؟ كيف يمكن أن ينظر في إيران إلى تواجد مئات الآلاف من الجنود الأمريكيين واحتمال قيام حكومة مؤيدة للغرب في العراق ؟ وما الذي يمكن أن تفعله إيران رداً على ذلك ؟ في العودة إلى الوراء ، يبدو أنه كان لايوجد فضول لطرح هذا النوع من الأسئلة ، لايوجد انضباط للحصول على الإجابات قبل إعلان الحرب على البلد . وفي نظرة استرجاعية ، كان يجب علينا في أجهزة الاستخبارات عمل المزيد للإجابة عن تلك الأسئلة مع أنّها لم تطرح . و أخبرني أحد كبار المحللين في وقت لاحق أنّه ساد انطباع بأنّ قضية " هل نذهب إلى الحرب " قد حُسمت بالفعل في اجتماعات لم نحضرها . وأنّنا دعينا لنبحث " كيف سنذهب " وبين آن و آخر " كيف سنشرح الأمر إلى الشعب " .

لم يكن هناك أي شك في النتيجة العسكرية ، لكن لم يجر النظر كثيراً ، على حدّ علمي ، في الصورة الكبيرة لما يمكن أن يحدث بعد ذلك . كان بعض صنّاع السياسة متلهفين للقول بأنّنا سنلقى الترحاب كمحرّرين ، لكنّهم لم يذكروا أنّ مجتمع الاستخبارات أبلغهم أنّ مثل هذا الترحاب لن يدوم سوى فترة محدودة. وأنّ الوضع يمكن أن يتدهور بسرعة مالم نؤمّن بيئة آمنة ومستقرة بسرعة .

بالإضافة إلى اجتماعات " المجموعة الصغيرة " في البيت الأبيض ، استضاف البنتاغون اجتماعات مماثلة يشار إليها باسم اجتماعات " الفريق التوجيهي التنفيذي " ، و يحضرها على العموم مسؤولون من الدرجة الأولى دون الذين يحضرون اجتماعات " المجموعة الصغيرة " . لكن التقارير التي كانت ترد إلى مقرّ قيادة السي آي إيه كانت تفيد أيضاً بأن الاجتماعات تبدأ بالحديث عن الإجراءات التي يجب اتخاذها " إذا ذهبنا إلى الحرب " و سرعان ما تنتقل بسلاسة إلى ما

الذي يجب أن يحدث " عندما نذهب إلى الحرب " ، دون التوقف في النقاش عند " هل نذهب إلى الحرب " .

وعلى مدى العامين الماضيين ، سألت عدة أشخاص كانوا في مناصب كبيرة في السي آي إيه في ذلك الوقت ، " متى عرفتم على وجه التأكيد أنّنا ذاهبون إلى الحرب في العراق ؟ " وقد جاءت الإجابات غنية بالمعلومات . كان لدى الأشخاص المشتركين في حشد الدعم للجيش الأمريكي فى إدارة بوش شعور مبكّر بأنّ الحرب حتمية . وتوصل المحللون الذين تحدثت إليهم على العموم – الذين كانوا يتعقبون برامج الأسلحة لدى صدام أو الذين يتفحصون الصلات المحتملة بين العراق والقاعدة – إلى الاستنتاج بأنّنا ذاهبون إلى الحرب في وقت متأخر جداً . قال ريتشارد هاس ، مدير تخطيط السياسات السابق في وزارة الخارجية إنّ كوندي رايس أخبرته في يوليو ٢٠٠٢ م بأنّ القرارات اتخذت " ، و أن الحرب نتيجة حتمية ما لم يذعن صدام لكل مطالبنا.

في مايو ٢٠٠٢ م ، سافر نظيري البريطاني ، سير ريتشارد ديرلوف ، إلى واشنطن إلى جانب ديفيد مانينغ ، مستشار الأمن القومي لرئيس الوزراء البريطاني بلير في ذلك الوقت ، لمعرفة موقف واشنطن من العراق . اجتمع السير ريتشارد مع رايس وهادلي وليبي وعضو الكونغرس بورترغوس الذي كان في ذلك الوقت رئيس لجنة الاستخبارات في مجلس النواب .

في ربيع ٢٠٠٥ م تسرّبت بعض الوثائق يرجع تاريخها إلى يوليو ٢٠٠٢ م إلى الصحافة البريطانية . وقد تحدّثت الوثائق التي عرفت باسم " مذكرات داوننغ ستريت" عن تحول ملموس في موقف واشنطن قائلة إنه يُنظر إلى العمل العسكري الآن بأنّه محتوم . وتنقل إحدى المذكرات عن " سي " ، وهي التسمية التي يطلقها البريطانيون على رئيس جهاز الاستخبارات العامة البريطاني ، قوله : " إنّ المعلومات الاستخبارية والوقائع تُجهز بناءً على السياسة " . و أبلغني السير ريتشارد لاحقاً عن إساءة النقل عنه . فقد راجع مسوّدة المذكّرة واعترض على كلمة " تجهّز " على وجه

الخصوص ، صحّحها لتعكس واقع الحال . وقال إنّه عقب عودته إلى لندن في يوليو ٢٠٠٢ م ، أعرب عن رأيه استناداً إلى محادثاته بأنّ الحرب في العراق ستقع . وكان يعتقد بأنّ الزخم الذي يدفعها ليس أسلحة الدمار الشامل و إنّما قضايا أخرى أكبر ، مثل تغيير السياسة في الشرق الأوسط .

و أشار ديرلوف أنّ ثمة خلافاً مهذباً و لكن مهماً وقع مع سكوتر ليبي الذي كان يحاول إقناعه بوجود علاقة بين العراق والقاعدة . وكان رأي ديرلوف الذي تمسك به بقوّة ، استناداً إلى التقارير الصادرة عن جهازه ، وهي تقارير تشاركها مع السي آي إيه ، أنّ اتصالات جرت بين الاثنين لم تسفر عن شئ و أنّه ليست هناك علاقة رسمية . وكان يعتقد بأنّ المجموعة المحيطة بنائب الرئيس تتلاعب بالأدلة . و رأى أنّ الأمر لم يكن يتعلّق " بتجهيز " المعلومات الاستخبارية نفسها و إنّما بالطريقة غير المنضبطة التي تستخدم بها تلك المعلومات .

في مذكّرة أرسلها دوغلاس فيث ، وكيل وزراة الدفاع للسياسات ، إلى جون مكلوغلن في ٦ سبتمبر ٢٠٠١ م أرسل برقية تلخّص تعليقاته على مؤتمر عقد مؤخراً في برلين وحضره مسؤولون أمريكيون وبريطانيون وفرنسيون وألمان . وتنقل البرقية عن فيث أنّه أبلغ الجمع بأنّ " الحرب ليست اختيارية ، فبقاء الولايات المتحدة كمجتمع منفتح وحر معرضّ للخطر ". ومضت الخلاصة إلى القول إنّ فيث أبلغ زملاءه بأنّ العمل الأمريكي يستند إلى الدفاع عن النفس . لذا فيما يتعلق بالعراق ، لا تعتبر مسألة إمكانية إثبات صلة العراق بهجوم الحادى عشر من سبتمبر أمراً جوهرياً " . و يبدو أنّ أحد الحاضرين الأجانب وافقه الرأي قائلاً إنّ علينا ألا نعلق في " التقيد الحرفي بالقانون بشأن الدليل الواضح على التهديد الوشيك " ، بالنظر إلى تاريخ صدام في الخداع .

فيما كنّا في السي آي إيه نركّز اهتمامنا بشكل كثيف على القاعدة . وكان العراق يستحوذ على اهتمام آخرين في الإدارة ، بدا أنّ مجموعة فرعية ثالثة من الأشخاص تضع إيران نصب

عينيها . وقد نبّهنا إلى ذلك سلسلة غريبة من الأحداث . ففي أواخر ديسمبر ٢٠٠١ م ، أبلغ السفير الأمريكي إلى إيطاليا ، ملفين سمبلر ، المسؤول الأول للسي آي إيه عن إيطاليا أنّ مايكل ليدين ، وهو ناشط أمريكي محافظ ، موجود في روما إلى جانب مسؤولين من وزارة الدفاع ، يتحدّثون مع الإيطاليين عن اتصالات سرية مع الإيرانيين . وكان ليدين قد برز بوضوح في فضيحة إيران الكونترا في ثمانينات القرن الماضي وهو الذي عرّف منوشهر غور بانيفار، الوسيط الإيراني المحافظ ، على أوليفر نورث . وكانت مهمّة ليدين الأخيرة بمثابة خبر جديد بالنسبة إلينا . بعد بضعة أسابيع ، في ١٤ يناير ٢٠٠٢ م ، قدم ممثل كبير عن الاستخبارات الإيطالية إلى واشنطن وزارني . سألني عما أعرفه عن بحث مسؤولين حكوميين أمريكيين سبل الاتصال بالإيرانيين . نظرت إلى الأعضاء الآخرين في أركاني المشاركين بالاجتماع . واتضح أنّه لم يكن أحد منّا يعرف ما الذي يتحدّث عنه . فغيّر الإيطالي الموضوع بسرعة .

في ١ فبراير ٢٠٠٢ م ، أبلغ السفير سمبلر كبير ضباطنا في إيطاليا أنّه تلقى أسئلة من وزارة الخارجية عن زائرين من وزارة الدفاع، تبيّن أنهما لاري فرانكلين وهارولد رود من أركان دوغلاس فيث. وقال السفير بأنّ ثمة تقارير عن أنّ الرجلين يتحدثان عن برنامج بقيمة خمسة و عشرين مليون دولاراً لدعم الإيرانيين الذن يعارضون نظام طهران . ما زلنا لانملك أية فكرة عن هذا البرنامج ، لكن بدا ما سمعنا عنه كأنه برنامج عمل سري غير مدوّن في السجلات يسعى إلى زعزعة استقرار الحكومة الإيرانية . ومثل هذا البرنامج قد يكون غير قانوني بدون الصلاحيات المناسبة المعطاة من الرئيس ، و التى يتم منحها عبر السي آي إيه عادة ، و بدون إشعار الكونغرس . وبدأ ذلك يتخذ مظهر كونه " ابن إيران – الكونترا " .

تناولت الهاتف واتصلت بستيف هادلي و سألته عما يجري . بدا أنّ هادلي يعرف شيئاً عن المبادرة . وذكّرني أنّه ذَكَر لي في أوائل ديسمبر ٢٠٠١ م أنّ وزارة الدفاع قد تجتمع مع بعض

الإيرانيين في أوروبا لديهم معلومات عن تهديدات إرهابية . صحيح لكن لم يرد ذكر أي شئ كهذا ؛ لم يبحث أمر ليدين وغوربانيفار ، أو المعارضة الإيرانية . و أذكر أنّني انزعجت من الحديث السابق ولم أفهم لماذا لم يطلب من السي آي إيه الضلوع في ذلك بشكل مباشر . لكن إذا كانت هناك معلومات متاحة عن تهديد للمصالح الأمريكية ، فإنّني لن أدع الأسباب البيروقراطية تقف في طريق حصولنا على التفاصيل لكن ما أسمعه الآن مختلف تماماً . وسألني هادلي إذا كان بول ولفويتز اتصل بي من قبل لشرح ذلك . وكان جوابي هو لا .

أرسل إليّ ستيف مذكّرة تلقاها من مايكل ليدين مؤرّخة فى ١٨ يناير ٢٠٠٢ م . وفيها يتحدث ليدين عن كيفية ترتيب اجتماع مع مسؤولين إيرانيين " يعارضون النظام معارضة عنيفة " و تحدّثت أيضاً عن أنّ المسؤولين في البنتاغون اقترحوا أن تخضع مباردة العمل مع هؤلاء الأشخاص " لإدارة العاملين في وزراة الدفاع بشكل كامل " و أنّ الإيرانيين أوضحوا عدم رغبتهم التامة في التعامل مع أحد من السي آي إيه ، لكنّهم مرتاحون تماماً مع المسؤولين في البنتاغون " . ثار غضبي . ألا يذكر هؤلاء الأشخاص الماضي ؟ اتصلت بهادلي بعد مراجعة مذكّرة ليدين . قلت : " ستيف ، هذه العملية بأكملها تثير الشبهات " . و أتبعت ذلك بمذكرة كتبتها إليه في ٥ فبراير ٢٠٠٢ م أوصي فيها بقوة بأن يتولى زمام المسألة .

عندما علم كولن باول بالأمر استشاط غضباً . وكان باول قد أصبح مستشاراً للأمن القومي في سنة ١٩٨٧ م لتنظيف فوضى إيران – الكونترا ، ولا يريد أن يتعامل مع قضية أخرى . اتصل باول بكوندي رايس و أبلغها بضرورة تسوية هذه القضية على الفور ، و أنّه سيرفع الأمر إلى الرئيس مباشرة إذا لم يتم ذلك .

أبلغ هادلي في منتصف فبراير جون مكلوغلن بأنه قد تم حل المشكلة و أنّ ليدين لم يعد في الصورة . و طلب جون رداً خطياً على مذكرتي السابقة ، لكن لم نتلق شيئاً قط .

في ١١ يوليو ٢٠٠٢ م ، أخبر السفير في إيطاليا ضابطاً كبيراً في السي آي إيه بأن ليدين اتصل به ليقول إنّه سيعود إلى روما في الشهر القادم " ليكمل ما بدأه " . التقى ممثلنا في روما بنظرائه الإيطاليين و طلب منهم عدم تقديم أي مساعدة إلى ليدين ما لم يطلب السفير أو السي آي إيه ذلك . واتصل محام كبير في السي آي إيه بنظيره في مجلس الأمن القومي و سأل إذا كان أحد في مجلس الأمن القومي قد أجاز زيارة ليدين . فإذا لم يكن كذلك ، فإنّه قد يكون على السي آي إيه أن تقدم " تقريراً جنائياً " إلى وزارة العدل ، وهذه مطالبة نقوم بها عندما نعلم أن هناك احتمالاً لانتهاكات فى القانون.

بعد أسبوعين ، اتصل محامي مجلس الأمن القومي ليقول إنّ ستيف هادلي استدعى ليدين " وقرأ عليه قانون الإخلال بالأمن " و طلب منه " التوقف " وفى ضوء ذلك فإنّهم لا يرون ضرورة لتقديم تقرير جنائي .

و كانت هناك سلسلة من الاستقصاءات تمت بإيحاء من ليدين بدون ترتيبات مسبقة عبر الكونغرس و البيت الأبيض و وزارة الدفاع وغيرها . والخيط المشترك فيما بينها أنّ لديه معلومات بالغة الأهمِّية وحساسة جداً ويوّد التحدّث عن مكافأة. لكن هذه المعلومات لم تفض إلى شئ .

في ٦ أغسطس ٢٠٠٣ م ، بعد أن أطاحت الولايات المتحدة بصدام ، اتصل ليدين بوزارة الدفاع قائلاً : " إنّ مصدراً يعرف بأنّ كمية كبيرة من اليورانيوم المخصب دُفنت في العراق على عمق ثلاثين إلى أربعين متراً تحت قاع النهر ، لكنّ بعضها نقل إلى إيران . و أبلغ ليدين مسؤولاً في وزارة الدفاع أنّه أطلع سكوتر ليبي وجون حنا ، وهما من موظفي مكتب نائب الرئيس ، وأنّه يعتزم إطلاع أعضاء لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ ، لكنّه لن يبلغ السي آي إيه . وتبيّن أنّ تلك المعلومات عديمة الجدوى ، على غرار معظم معلومات ليدين .

بعد يومين ، في ٨ أغسطس ، تسربت أنباء إلى وسائل الإعلام عن اجتماعات ليدين وغور بانيفار السابقة مع مسؤولين في البنتاغون ، ربما لبحث تغيير النظام في إيران . أقرّ عدد من المسؤولين في البيت الأبيض ووزارة الدفاع بحدوث بعض الاجتماعات ، و لكنهاّ بِلا جَدوى . اتصلت بكوندي رايس وحثثت موظفي مجلس الأمن القومي على كشف خبايا المسألة . وقلت : " إذا لم تفعلوا ، فسينتهي ذلك على مكتب الرئيس ، وسيتحمل المسؤولية " . ذكرت كوندي رايس أنّه بعد الاجتماع الأول في روما ، التقى مسؤولو وزارة الدفاع بالإيرانيين مصادفة في باريس في أثناء عبور شارع أو شئ من هذا القبيل . فقلت : " كوندي ، في مثل هذا العمل لا يوجد شئ اسمه اجتماع عرضي " .

في وقت لاحق من ذلك الشهر ، في أحد الاجتماعات الأسبوعية لمجلس الأمن القومي ، أثرت ثانية مخاوفي مما حدث و أنّ على مجلس الأمن القومي كشف خبايا الأمر . وكرّرت أمام ستيف هادلي أن لا نية لدينا للاجتماع بغور بانيفار . فقد أصدرت السي آي إيه " إشعاراً بالحرق " (إعلاناً رسمياً بأنّ مصدراً ما غير ذي جدوى) بشأنه قبل نحو عشرين سنة ، وليس لدينا أي سبب يدعونا إلى مراجعة رأينا في مصداقيته . وفتحت وزارة الدفاع تحقيقاً في الاتصالات بين موظفيها و غور بانيفار ، لكنّني لم أعرف نتيجته .

في النهاية كانت حماقات ليدين بشأن إيران تصرف الإدارة عن محور اهتمامها الرئيسي ، أي العراق . ففي مايو ٢٠٠٢ م ، عبّر مجلس الأمن القومي عن اهتمامه بإصدار منشور غير سري يعرض فيه بعض ما نعرفه – أو كنّا نعتقد أنّنا نعرفه – عن برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق . وأصدر مجلس الاستخبارات القومي وثيقة مماثلة استخدمتها إدارة كلينتون لمساعدتها في تبرير حملة ثعلب الصحراء في ديسمبر ١٩٩٨ م . تحمّل مجلس الاستخبارات المسؤولية ثانية ، وعهد بالمهمة إلى بول بلر ، و هو أحد ضباط الاستخبارات القومية . وكما هو شائع في مشاريع

كهذه . أُكملت الصياغة بشكل متقطّع . وثار نقاش بشأن تحرير المسودة " ككتاب أبيض " صادر عن الحكومة الأمريكية – أي لا يحمل خاتم أي هيئة – لكن في النهاية وضعت الوثيقة على الرّف بعد أن فقد مجلس الأمن القومي الاهتمام بها .

في صيف وخريف ٢٠٠٢ م ، طلب مجلس الأمن القومي من جون مكلوغلن أن تجمع الوكالة معلوماتها الاستخباراتية عن برامج أسلحة الدمار الشامل لدى صدام وسجلّه في حقوق الإنسان كل مسألة على حِدَا ، و خُلاصَة ما نعتقد بأنّه صلة العراق بالإرهاب . احتدم الجدال العام فيما كانت هذه الجهود تتقدم في الخلفية . ففي ١٥ أغسطس ٢٠٠٢ م ، نشر برنت سكوكروفت ، الذى شغل منصب مستشار الأمن القومي لدى الرئيسين فورد وبوش الأول ، ورئيس المجلس الاستشاري للاستخبارات الخارجية لدى جورج دبليو بوش ، مقالة في صفحة الرأي في صحيفة " وول ستريت جورنال " بعنوان " لا تهاجموا صدام حسين " . وفي المقالة رأى سكوكروفت أنّ الهجوم سيصرف اهتمام الولايات المتحدة عن الحرب على الإرهاب . لا عجب أنّ هذه النصيحة لم تلق قبولاً حسناً في ١٦٠٠ شارع بنسلفانيا . ومع انضمام أصوات معتدلة إلى الجدال الداعي إلى الحذر في العراق ، تعهّدت إدارة بوش بالاستماع بعناية لآراء كل الأطراف ، لكن بدا أنّ خطابها متقدّم جداً على المعلومات الاستخبارية التي نجمعها عبر النهر فى لانغلى.

فقد فوجئت، فعلى سبيل المثال عندما قرأت عن خطاب نائب الرئيس تشيني الذي ألقاه أمام المحاربين القدامى في الحروب الخارجية في ٢٦ أغسطس ، وفيه قال : " بكل بساطة ، ليس هناك أدنى شك بأنّ صدام حسين يمتلك الآن أسلحة دمار شامل . وما من شكّ أيضاً في أنّه يكدّسها لاستخدامها ضدّ أصدقائنا وحلفائنا وضدّنا " . وقال نائب الرئيس لاحقاً في كلمته أمام المحاربين القدامى " كثير منّا مقتنعون بأنّ (صدام) سيحصل على أسلحة نووية عما قريب " .

باغتني الخطاب أنا و كبار العاملين في الوكالة لعدة أسباب . فى بادئ الأمر ، لم يرسل موظفو نائب الرئيس الخطاب إلى السي آي إيه لإجازته ، كما يتم عادة في الملاحظات التي يجب أن تستند إلى معلومات استخبارية . و الخطاب يتجاوز كثيراً ما يمكن أن تؤيّده تحليلاتنا . فقد كان اعتقاد أجهزة الاستخبارات أنّ العراق إذا ترك بدون ضابط ربما لن يحصل على أسلحة نووية إلا في أواخر العقد .

في كلمة نائب الرئيس أمام المحاربين القدامى ، ذكّر الحضور بأنّ أجهزة الاستخبارات بخست تقدير تقدّم العراق نحو صنع سلاح نووي في حرب الخليج الأولى . ولا شكّ في أنّ تلك التجربة صبغت رأي نائب الرئيس بجمع المعلومات الاستخبارية الأمريكية منذ ذلك الحين ، لكن كان لها أيضاً تأثير عميق على آرائي و آراء العديد من محلّلينا . و بالنظر إلى ميل صدّام إلى الخداع و الإنكار ، فإنّنا كنّا أكثر تردداً من احتمال أن يكون ما يجري هناك أكبر مما يمكننا كشفه .

أظنّ أن الخطاب أمام المحاربين القدامى كان محاولة من قبل نائب الرئيس لاستعادة الزخم باتجاه التحرك ضدّ العراق بعد أن توقّف قبل أحد عشر يوماً نتيجة مقالة سكوكروفت . ولدي انطباع بأنّ الرئيس لم يكن على علم أكثر منّا بما سيقوله نائبه أمام المحاربين القدامى إلى أن قاله . لكن إذا كان الخطاب يهدف أساساً إلى الدعوة لليقظة ، فقد كان خطاباً مرتفعاً جداً .

في أعقاب العراق ، سألني السناتور كارل ليفن في جلسة استماع أمام لجنة الاستخبارات في مجلس الشيوخ في ٩ مارس ٢٠٠٤ م إن كان يجدر بي التدّخل عندما سمعت المسؤولين يدلون بتعليقات عامة تتجاوز معلوماتنا الاستخبارية . كان سؤالاً منصفاً . من الواضح أنّه يحقّ لصنّاع السياسة التوصّل إلى استنتاجاتهم فيما يتعلّق بالسياسة . والاستخبارات جزء مهم من عملية اتخاذ القرار لكنّها ليست المكّون الوحيد . و يجوز لصنّاع السياسة التوصّل إلى أحكام مستقلّة بشأن ما

تعنيه المعلومات الاستخبارية وما هي المخاطر التي سيتحمّلونها . لكن ما لا يستطيعون عمله المبالغة في المعلومات الاستخبارية نفسها . و إذا فعلوا ذلك فإن عليهم الفصل بوضوح بين ما تقوله الاستخبارات و الاستنتاجات التي توصّلوا إليها . وإنصافاً لنائب الرئيس ، قبل إصدار تقدير الاستخبارات القومية في أكتوبر ٢٠٠٢ م ، كان لدينا في السي آي إيه وثائق خطية في منشورات رئيسية ، مثل إطلاع الرئيس اليوم ، تفيد بأننّا واثقون جداً أكثر مما يجب بشأن برامج أسلحة الدمار الشامل في العراق ، ومع ذلك ليس بينها على ما أذكر ما يضع حصول العراق على سلاح نووي في الجدول الزمني الذي أوحى به الخطاب أمام المحاربين القدامى . لعل مواقف صنّاع السياسة الذين يتذكّرون التاريخ السابق ، مثل نائب الرئيس ، تتصلّب عندما يقرأون تحليلاً " جازماً جداً " .

لصنّاع السياسة الحقّ في أن يكون لديهم آراؤهم الخاصة ، لكن لا وقائع خاصة بهم . ومن واجبي أن أبذل قصارى جهدي للتحققّ من أنّهم يعرفون أين نختلف ولماذا . والمكان المناسب لإجراء هذا التميز هو النقاشات الثنائية مع المديرين ، وقد فعلت ذلك في عدّة مناسبات . لم ينتخبني أحد لإلقاء خطب توضح كيف أخالفهم في القضايا الشائكة و أين . وكان يجدر بي أن أبلغ نائب الرئيس على انفراد بأنّني اعتقد أنّه ذهب بعيداً جداً في خطابه أمام المحاربين القدامى . هل كان يمكن أن يغيّر ذلك من نهجه في المستقبل ؟ أشكّ في ذلك، لكن ما كان يجب أن أدع الصمت يعني الموافقة . وقد كان أداؤنا أفضل بكثير في التراجع عن احتمال وجود ارتباط بين العراق والقاعدة الشئ الذى ذهب إليه بعض العاملين فى الإدارة بصورة من المبالغة. بعد ظهر يوم الجمعة في ٦ سبتمبر٢٠٠٢ م ، أي بعد مرور أسبوع على خطاب نائب الرئيس أمام المحاربين القدامى ، اجتمع فريق الرئيس للأمن القومي في كامب ديفيد وأمضى الليل هناك للمشاركة في الاجتماعات بشأن العراق إلى اليوم التالي . وقد أرسل موظفو مجلس الأمن القومي مسبقاً كتب إطلاع سميكة ملئية بمعلومات عن خلفية الوضع لكي يقرأها المشاركون . وقد أدرجت صفحة في أوائل الكتاب المهام

التي تنجز بإزاحة صدام – تحرير الشعب العراقي – ، وإزالة أسلحة الدمار الشامل ، ووضع حدّ لتهديدات العراق لجيرانه ، وماشابه .

و في منتصف الكتاب تقريباً ، ثمة ورقة تبحث بعبارات عامة كيف يمكن التعامل مع العراق بعد إزاحة صدام . قالت الورقة إنّنا سنحافظ على قسم كبير من بيروقراطية العراق ، لكن سندخل إصلاحات عليها . و سرد أحد الملاحق على الحاضرين بعض الدروس المستفادة من احتلالي ألمانيا واليابان بعد الحرب العالمية الثانية . وفي نهاية الكتاب تقريباً ، توجد ورقة أصدرها محلّلو السي آي إيه قبل ثلاثة أسابيع . وهي بتاريخ ٣ أغسطس ٢٠٠٢ م و تحمل العنوان " الزوبعة العارمة : التخطيط للآثار السلبية لغزو العراق " . وقد قدّمت الورقة سيناريوهات أسوأ حالة ربما تنشأ بعد مسعى تغيير النظام بقيادة أمريكية و تقول الخلاصة إنّه في أعقاب الغزو : ستواجه الولايات المتحدة آثار سلبية في العراق والمنطقة وخارجها ، وهي تشمل :

- الفوضى وتفكّك مناطق العراق ؛
- عدم استقرار يهدّد النظام في دول عربية رئيسية ؛
- تزايد الإرهاب العالمي ضدّ المصالح الأمريكية و تذكية الكراهية الإسلامية العميقة للولايات المتحدة ؛
- انقطاعات كبيرة في واردات النفط و توتّرات حادّة في حلف الأطلسي .

من المفيد الاستشهاد بهذه المعلومات والقول : " أترون ، لقد توقعنا الكثير من المصاعب التي حدثت لاحقاً " . لكن القيام بذلك سيكون مراوغة. فغالباً ما تكون الحقيقة أعقد مما هو ملائم. فلو كنّا شعرنا بقوّة بأنّ هذه هي النتائج المرجّحة ، لرفعنا الصوت في الإعلان عن استنتاجاتنا . ولم يحدث في الواقع أي صراخ أو ضرب على الطاولة . بل قلنا إنّ هذه أسوأ حالة . كما أنّنا أسميناها بدقة سيناريوهات . فلم يكن لدينا أي طريقة نعرف من خلالها كيف

سيتطّور الوضع في العراق على الأرض . ولم نكن على علم ببعض الأعمال التي ستقوم بها الولايات المتحدة في المستقبل وتساعد في جعل سيناريوهات أسوأ حالة أمراً محتوماً .

اختتمت ورقة الزوبعة العارمة بسلسلة من الخطوات التي يمكن أن تتخذها الولايات المتحدة للمساعدة في خفض فرصة وقوع بعض هذه الآثار السلبية ، بما في ذلك المبادرات الدبلوماسية لتعزيز فرص السلام العربي الإسرائيلي . فقد أشرنا بأنّ الترويج لفكرة أنّنا لا نزال ملتزمين بحلّ عادل لهذه القضية الحيوية، على الرغم من التصرف عسكرياً في العراق ، سيكون له صدى عظيم في العالم الإسلامي . و من المهم أن نظهر للعالم العربي بأنّنا قادرون على صنع الحرب والسلام في الوقت نفسه .

أثار الاجتماع في صباح الأحد ٧ سبتمبر الكثير من الجدل بشأن حكمة إحياء نظام التفتيش التابع للأمم المتحدة . وقف كولن باول إلى جانب أن نخطو الميل الإضافي مع الأمم المتحدة ، في حين حاجّ نائب الرئيس بقوّة مماثلة أيضاً بأنّ القيام بذلك سيوقعنا في أوحال الشرك البيروقراطي دون أن يثمر ذلك سوى عن فقدان الوقت . و قد عمد الرئيس إلى ترك باول و تشيني يتقاتلان حول المسألة . و أعتقد أنّ الرئيس كان لا يزال أقل ميلاً إلى الذهاب إلى الحرب من ميل العديد من مساعديه الكبار .

بعد أسبوع ، أي يوم الأحد في ١٤ سبتمبر ، عقد ستيفن هادلي اجتماعاً آخر في غرفة العمليات في البيت الأبيض حضره مسؤولو الصف الثاني في مجلس الأمن القومي ووزارتا الخارجية والدفاع والسي آي إيه . وكان عنوان جدول الأعمال ، " لماذا العراق الآن ؟ " وكان بوب بول ، ضابط الاستخبارات القومية للبرامج الاستراتيجية بين الحضور . ويذكر أنّه أبلغ هادلي بأنّه لن يستخدم أسلحة الدمار الشامل لتبرير الحرب مع العراق . فعمد أحدهم ، و لم

يكن يعرفه في ذلك الوقت لكنّه يعرف الآن بأنّه سكوتر ليبي ، إلى الميل نحو مشارك آخر في الاجتماع والسؤال " من هذا الشخص ؟ " . أوضح بول لهادلي أنّ الكوريين الشماليين متقدّمون على العراق في كل فئة من فئات أسلحة الدمار الشامل. وكان بوب يعرف أنّنا اكتشفنا مؤخراً برنامج بيونغ يانغ السري لإنتاج اليورانيوم عالي التخصيب ، استنتجنا بشكل صحيح بأنّ ذلك سيصبح معروفاً على الملأ في القريب و أبلغ المجموعة ، " عندما يذاع ذلك ، فإنكم ستواجهون أوقاتاً عصيبة في تفسير لماذ أنتم أشدّ قلقاً بشأن بلد ربما يعمل على تصنيع الأسلحة النووية بدلاً من البلد الذي ربما يمتلكها بالفعل و يمتلك الوسائل اللازمة لإطلاقها على الولايات المتحدة

اقترح أحدهم بأنّ التواطؤ مع الإرهاب يجعل العراق تهديداً أكبر. وتحدّث محللان حاضران من السي آي إيه فقالا إنه يمكن تقديم حجّة على دعم إيران للإرهاب الدولي أقوى بكثير من الحجّة التي يمكن سوقها بالنسبة إلى العراق . ويذكر كلاهما أنّ دوغلاس فيث قال إنّ اعتراضاتهما مجرّد " اهتمام بالتفاصيل " .

المـراجـع

أ) القواميس والمعاجم:

١) البعلبكي، منير ، المورد ،إنجليزى/عربى، مكتبة لبنان ، بيروت ٢٠٠١ .

٢) الكرمي، سعيد ، حسن، المغني الأكبر، إنجليزى/عربى، مكتبة لبنان، بيروت ٢٠٠٧.

٣) قامُوس أطلس المَوسُوعِيّ، إنجليزىّ/عربىّ دار اطلس للنشر ، المهندسين، الجيزة ٢٠٠٥

.

ب) WEB

1) **Dtsearch web search**

2) **https://translate.google.com**